الفصل الثانى

الشرق فى طور بعثه*

١ – أثر الحركات الفكرية فى بناء الوطن

ما هو المقصود بالحركات الفكرية ؟ لعلى لا أكون مخطئاً حين أجيب عن هذا السؤال بأن الحركات الفكرية إنما هى يقظة الأمم من ركود تألفه وتستنيم إليه ، فتؤدى استنامتها لهذا الركود إلى انتشار العادات الضارة ، والعقائد السقيمة ، والمفاسد التى تصبح فى حكم العادات والعقائد . والتى تضر بالمجموع القومى ضرراً يشعر به بادئ الرأى بعض الأفراد فينبهون إليه ، ثم ينتشر الشعور به فى طوائف الأمة المختلفة . فإذا علت الصيحة بمقاومة هذا الفساد لبى الشعب هذه الصيحة ، فكانت اليقظة ، وكانت الحركة الفكرية أو التحريرية للقضاء على العادات الضارة والعقائد السقيمة والمفاسد الناشئة عنهما . وعند ذلك تتحرك نفسية الشعب إلى أمل أسمى ومثل أعلى يراد تحقيقهما للخير العام .

والركود الذى يصيب الشعوب فتنشأ عنه هذه المفاسد مثله فى الجماعة الإنسانية كمثل ركود الماء وما ينشأ عنه من طحلب يعلو سطحه ، ومن

---

* محاضرة ألقيت بدار الكتب الوطنية فى حلب سنة ١٩٥٣ .

جراثيم تنمو فى هذا الطحلب فتفسد الماء نفسه فيصبح آسنا . ويقظة الشعب لمحاربة الأسن الذى يريم عليه ، ومقاومة ما ينشأ عنه من فساد ، إنما مثلها كمثل الماء الجارى يندفع قويًّا إلى مواضع الركود فإذا الطحلب يتمزق وينزاح أمام هذا الماء المتدفق فيلقى به إلى الشطآن حيث تلقمه الشمس وتنقيه وتطهره من جراثيمه . كذلك تفعل يقظة الشعوب ، تمزق ماكثف من حجب العادات الضارة والعقائد السقيمة وتقضى على جراثيم الفساد التى عششت فيها ، ثم إذا الكيان القومى يقاوم ما اندس إليه من ضعف ، وإذا بناء الأمة الذى كاد يتهدم ويتداعى يعود متيناً قويًّا ، وإذا هذه الأمة تستظل بلواء من حرية الفكر يجدد فيها العزائم المنحلة والنفوس الضعيفة ، ثم إذا بها تندفع متحدة الكلمة متوثبة العزم لتنهض بالعبء الإنسانى الذى يقتضيها التقدم فى طريق الكمال .

واليقظة القوية مصدرها العقل والعاطفة ، إذ يغالبان السليقة الحيوانية ، ويتغلبان عليها ويسموان بها إلى ما يرضى الشعور البشرى بالكرامة الإنسانية . والعقل والعاطفة هما اللذان يوجهان السليقة الحيوانية فى الإنسان إلى الخير أو إلى الشر فيسموان بها إلى مصاف الأبرار والعلماء والقديسين ، أو ينحدران بها إلى مصاف الأشرار والجهال والفاسدين .

ومن هنا كان اختلاف هذه السليقة فى الإنسان عنها فى سائر الحيوان . سليقة الحيوان تهديه طريقه فى الحياة على نحو ما اهتدى آباؤه وأجداده وسائر أسلافه منذ كان نوعه . فالأسد اليوم يعيش كما عاش الأسد من مائة ومن ألف ومن عشرة آلاف سنة مضت . وشأن الثور كشأن الأسد سواء ، وكذلك سائر الحيوان . أما الإنسان فتتأثر سليقته بهدى عقله

وعاطفته وحبه ، لأنه يستطيع بهداها أن يعرف لنفسه ألواناً من المتاع فى الحياة لا يبلغها عن طريق السليقة وحدها .

صحيح أن سليقة الحيوان وسليقة الإنسان تهدفان كلاهما إلى المحافظة على الحياة وإلى تخليد النوع . والمحافظة على الحياة تقتضى كلها الطعام والشراب والمأوى . وتخليد النوع إنما يكون بالتناسل . ولكن الحيوان لا يعنى من طعامه وشرابه ومأواه وتناسله بمتاع خاص يلذ حسه ، أو يرضى عاطفته ، أو يرضى عنه عقله وإنما تدفعه الطبيعة إلى أن ينال من ذلك ما يسرته له فى حدود الأغراض التى تمليها سليقته : المحافظة على الحياة وتخليد النوع . أما الإنسان فلا يكتفى بما تيسره الطبيعة ، بل يحرص على تحويره وتنظيمه على صورة تنيله من المتاع بالحياة ما يجعله أشد حرصاً على المحافظة عليها ، ومن تخليد النوع ما يخلع عليه ألواناً من الحس والعاطفة ليس للحيوان منها إلا القدر القليل . ثم يبدع عقله وحسه وتبدع عاطفته ألواناً من العلوم والفنون والآداب تزيد هذا المتاع أضعافاً مضاعفة .

ومن هنا كان تطور الإنسان على حقب التاريخ فى ألوان حياته الفردية والجماعية ، وكان تطور صلات الناس بعضهم ببعض فى الأسرة والقبيلة والمدينة والأمة ، وفيما بين الأمم بعضها وبعض . ومن هنا كذلك طوّر العلم أسباب الحياة من شظف العيش الذى كان يحياه الناس منذ ألوف السنين ، والذى لا يزال مألوفاً عند بعض الجماعات الإنسانية المتخلفة ، إلى ما وصلنا إليه اليوم من آيات العلم والفن وسائر ما هنالك من نتاج العقول ووحى الخيال فى مختلف الميادين .

جاء هذا التطور الذى نقل الجماعة الإنسانية من حال الهمجية إلى أسمى ما بلغته من مراتب الحضارة نتيجةً ليقظة العقل والعاطفة يقظة تكررت

عشرات المرات فى مختلف أرجاء الأرض ، وتبعتها فى كل مرة تلك الحركات الفكرية فكان لها ما كان من أثر فى بناء الأمم . وقد اختلفت صور هذه اليقظة باختلاف الأزمنة والأماكن التى تقع فيها ، فكانت تارة يقظة روحية ، وتارة أخرى يقظة فنية ، وتارة ثالثة يقظة علمية ، وتارة رابعة يقظة صناعية ، وهلم جرا ، وفى أعقاب كل واحدة من هذه اليقظات كانت الحركات الفكرية تتفاعل فتخرج الأمة من سباتها ومن ركودها إلى نشاط معمر يظل زمناً حتى تبدو اليقظة فى ركن آخر من أركان العالم ، فإذا تلك اليقظة الأولى تنطوى على نفسها ، وإذا هى تنقلب شيئاً فشيئاً ركوداً يعلوه حجاب يكثف بتوالى الزمن ، وتعشش فيه جراثيم العقائد السقيمة والآراء الضارة وما ينشأ عنهما من فساد وانحلال يطول زمنهما أو يقصر ، حتى تمزق حجابهما يقظة جديدة ونهضة فكرية جديدة .

وتاريخ الإنسانية سلسلة متصلة من تلك اليقظات ومن أدوار الركود تبدو هنا وهناك فى مختلف أرجاء العالم . وحسبى أن أعيد إلى الذاكرة بعض هذه اليقظات لنرى أن مصدرها جميعاً كان حركة فكرية . ولنقدر ما كان لها من أثر فى بناء الأمة التى ظهرت فيها . ثم امتدادها من بعد ليعم أثرها العالم كله .

موسى بن عمران

وأول مثل أضربه اليقظات الروحية . فهذه الأديان التى نشأت فى منطقتنا ، منطقة الشرق الأدنى ، قد كان كل واحد منها ، فى أول أمره ، حركة فكرية نادى بها رجل فهتك بها حجاب ذلك الركود الذى خيم على الأمة التى نشأ فيها . كان « موسى بن عمران » فى مصر ، وكان فرعون

مصر يقول لأهلها : أنا ربكم الأعلى ، وكان أهل مصر يخلعون على فرعون كل مظاهر الألوهية وصفاتها ، فجاء « موسى » بأمر ربه وألقى فى الناس أن فرعون ليس إلا رجلا كالرجال ، وأن الله جل شأنه برّأه كما برأ غيره من الناس . وأن فرعون معرّض للخطأ ، كما أن غيره من الناس معرض للخطأ . وأن الكمال لله وحده ، والعصمة له وحده . ويجب أن تكون العبادة له وحده .

هذه فكرة تحريرية ألقى بها « موسى » فأثار فرعون ثم كان لها من بعد أثرها ، لا فى حياة مصر وحدها ، بل فى حياة العالم كله .

عيسى بن مريم

وجاء « عيسى » وبطش الرومان مسلط على الرقاب ، فألقى فى الناس آية العفو والمغفرة والتسامح والسلام . فكان ما ألقاه فكرة جديدة قاومها الطغاة وقاوموا رسولها ، كشأنهم فى مقاومة كل فكرة تحريرية . ولكن هذه المقاومة لم تمنع ضياء الفكرة من أن يشع فى الآفاق إشعاع نور الشمس فيها ، ولم يمنع الفكرة ذاتها من أن تنتشر وأن تحتل ملك روما نفسها لتقضى على الطغيان فيها . وانتشرت المسيحية فى روما وفى مصر وبلاد الشرق ، ثم عم نورها آفاقاً لا تزال تسبّح بحمد المسيح وتقدس له . وكان للفكرة التى ألقاها المسيح أثرها فى بناء الأمم التى دانت لتعاليمه ، ولا يزال لها من هذا الأثر فى بناء أكثر الأمم رقيًّا وحضارة فى عهدنا الحديث ما تعرفون .

النبى العربى

وجاء النبى العربى برسالة الإسلام إلى شبه الجزيرة يوم خيم عليها ركود كانت عبادة الأصنام مظهره . جاء يدعو إلى التوحيد ، وإلى الأخوة الإنسانية ، وإلى أسمى الفضائل النفسانية ، فلم تمض على دعوته غير عشرات قلائل من السنين ثم إذا الإمبراطورية الإسلامية تمتد شرقاً من الهند والصين إلى المحيط الأطلنطى ، وإذا هذه الأفكار التحريرية تنهض بأمم أفسدها الركود فبعثتها لتقيم فى العلم حضارة ، وتبنى فى العالم شعوباً وأمماً لا تزال حتى اليوم تؤمن برسالة النبى العربى ، ولا تزال ترجو أن تبعث فى العالم روحاً جديداً من الإخاء والتسامح ومن المحبة والسلام والخلق الكريم تنقذه من فساد حل به وهو يرزح اليوم تحت كلكله .

هذه الحركات الفكرية التى أدت إلى تلك اليقظات الروحية ، والتى كان لها أكبر الأثر فى بناء الأمم التى اعتنقت هذه الرسالات ، أصابها الهرم والركود فى بعض الأحيان ، ثم دبت إليها اليقظة فى أحيان أخرى فعادت قوية تسمو بالحياة الإنسانية إلى ألوان من الجاه تضفى على الحياة قيمة لم تكن لها من قبل .

وحسبى أن أذكر مثلا لهذا الركود ولليقظات التى هتكت حجابه حركة البعث فى أوربا . كان قد دب إلى المسيحية فى العصور الوسطى من أثر الركود ما شجع رجال الدين على بيع براءات الغفران وما يشبه بيع براءات الغفران من أمور رآها بعض زملائهم مخالفة صارخة لتعاليم السيد المسيح . عند ذلك ثاروا بهم فكانت الحركة الفكرية التى قام بها

« لوثر » و « كالفن » والتى أقرت البروتستانتية فى العالم . وقد كان لهذه الحركة الفكرية من الآثار فى بناء الأمم الأوربية ما سجله التاريخ وما لا يزال يسجله إلى وقتنا الحاضر . فلم يقف أثر هذه الحركة عند الأمم التى اعتنقت المذهب الجديد ، بل قضت على كثير مما كان رجال ثورة الإصلاح الدينى يشكون منه ، وكانت براءات الغفران مقدمة ما قضت عليـــه .

ثم كان لهذه الحركة الفكرية أثر أبعد ، ذلك أنها نبهت الأذهان إلى أن للعقل الإنسانى حقوقاً لا يمكن أن تهضم ، وأن العقل الإنسانى يستطيع أن يفتح للإنسان من أبواب الطمأنينة والسعادة الشىء الكثير .

وفى ذلك الحين كانت جيوش الأتراك تتقدم حتى فتحت القسطنطينية وقضت على بيزنطية وعلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية القضاء الأخير ، ورفعت لواء الإسلام على البلاد التى فتحتها . هنالك اضطر عدد من العلماء ، الذين لم يرضوا أن يسيروا فى ركاب الغزاة ، للهجرة إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوربا ، فكانت هجرتهم طليعة البعث العلمى الذى شهدته أوربا منذ القرن السابع عشر ، والذى أقام الحضارة الغربية الحاضرة ، وهو لا يزال باق الأثر إلى اليوم .

هل لى قبل أن أتحدث عن اليقظة العلمية ، وعن الحركات الفكرية التى وجهتها وعن أثرها فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، وما كان لذلك من أثر فى سياسة العالم كله ، وفى قيام أمم وتدهور أمم أخرى ، أن أشير إلى ما بين اليقظة الروحية والحركة الفكرية التى توجهها وبين غيرها من اليقظات من اختلاف أساسى . . فاليقظة الروحية بطبعها تدعو الناس إلى العودة إلى الكمال الروحى ، إذ يكونون قد انحدروا إلى مراحل دون

مستواه . فهى ليست يقظة دافعة إلى تبديل يراد به التقدم إلى الأمام ، بقدر ما هى حركة مقاومة للتحلل النفسانى ، ودعوة للعود بالروح إلى صفاء جوهرها ، صفاء مصدره إيمانها الصحيح بالله . والإيمان بالله هو الإيمان بالكمال الروحى ، فالله كمال فى كل صفاته جل شأنه . وإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فواجب أن يلتمس الإنسان فى حياته كل الصفات التى تقربه من الله جهد طاقته .

وليس عجباً أن يكون ذلك شأن اليقظات الروحية ، فهذه اليقظات تتصل بجوهر النفس . وهذا الجوهر لا يتغير بالزمان ، بل هو باق بقاء الزمان . فليهد العلم الإنسان إلى ما شاء الله أن يهتدى إليه فلن يغير ذلك من جوهر نفسه ، ولن يغير مما يدعو إليه هذا الجوهر من معانى المحبة والإخاء والسمو الروحى شيئاً . لقد استطاع علم النفس أن يكشف عن كثير من العوامل التى توجهنا فى سلوكنا ، ولكنه لم يستطع أن يغير المثل العليا لقواعد هذا السلوك ، فلم يجعل الكذب أو الخداع سبيلنا إلى الحق ، ولم يجعل الكراهية والبغضاء سبيلنا إلى السعادة ، بل بقيت القيم الأخلاقية ، التى عرف الناس فضلها من ألوف السنين لم تتغير ، ولا إخالها تتغير وإن انقضت على يومنا بعد اليوم ألوف السنين وعشرات ألوفها .

فأما ما سوى اليقظات الروحية والحركات الفكرية التى توجهها ، فليس يدعو إلى مثل هذا العود لما محته أحلك أطوار التاريخ ، بل هو يدعو إلى أطوار جديدة فى مظاهر الحياة الإنسانية تزيد الناس رخاء أو تزيدهم بالحياة متاعاً . لما قامت الحركات التحريرية فى أوربا فى القرن الثامن عشر نتيجة لجهود العلماء الذين دفعهم الغزو التركى من اليونان إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوربا ، فتقررت حقوق الإنسان ، وفى مقدمتها الحرية

الفردية ، تطورت النظريات الاقتصادية متأثرة بهذه اليقظة السياسة ، متأثرة كذلك بالنشاط الاقتصادى الذى دفعت إليه هذه اليقظة . فبعد أن كانت الحياة الاقتصادية قائمة على أساس من الرق ومن تملك صاحب الأرض لمن عليها من الناس ، ألغى الرق وارتفعت الصيحة داعية إلى الفردية الاقتصادية . هذه العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتتابعة أدت « بآدم سميث » ، ثم « بجون ستيوارت مل » إلى تقرير المبدأ الفردى المطلق ، وإلى القول بأن أول واجب على الدولة ، بل واجبها الوحيد ، أن تحمى الحرية الفردية فى الميدان الاقتصادى . وأن تترك الناس يعملون أحراراً متنافسين ، يثرى منهم إلى غير حد من شاء ، ويموت جوعا من لم تمكنه مواهبه من الصمود فى ميدان المنافسة . وكانت الحجة الأساسية التى أقاموا عليها نظريتهم أن الطبيعة تعمل لبقاء الأصلح ، وأن قياس الصلاحية هو المقدرة على المنافسة فى الحياة . فإذا عجز إنسان أو عجزت طائفة من الناس عن أن تقف من المنافسة موقف الظافر فعليها أن تذعن للهزيمة وأن تكتفى بالفتات الذى يلقى إليها من جانب الظافرين . وإذا بلغ من ضعفها ألا تستطيع البقاء ، فذلك الدليل على عدم صلاحيتها له ، ومن الطبيعى إذن أن تندثر وأن تفنى .

ظلت هذه النظرية الفردية قائمة متحكمة طيلة القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من قيام دعاة للاشتراكية ، لم يستطع هؤلاء الدعاة أن يثبتوا أقدام دعوتهم ، وظلت الفردية الاقتصادية منتصرة فى حمى النظام السياسى الذى يحمى الحرية الفردية ولا يعبأ بما سواها . فلما آذن القرن التاسع عشر أن يولى بدأ التفكير الاشتراكى تقوى قوائمه ، وبدأت صيحات الدعاة تدوى فى آذان الشعوب ، وبدأت الطبقات العاملة تشعر بأن لها حقوقاً ، وبأنها

تستطيع من طريق التكتل أن تبلغ هذه الحقوق ، وبدأ المفكرون الاشتراكيون ينعون على النظام الفردى أنه فى إيمانه بالفرد ينسى الجماعة وينسى الشعب والأمة . وينادون بأن العدالة الاجتماعية تقتضى توزيع الثمرات التى تهبها الطبيعة للناس جزاء كدهم وعملهم توزيعاً أدنى إلى العدل . وتأثرت الحياة فى بلاد أوربا المختلفة بهذه الحركة الفكرية . فقامت فى ألمانيا الاشتراكية الديمقراطية وقامت فى فرنسا ألوان مختلفة من الاشتراكية . وبدأ حزب العمال يقوم فى إنجلترا . وانتشرت تعاليم « تولستوى » الاشتراكية فى روسيا .

ولست أشك فى أن هذه الحركة الفكرية كانت ذات أثر حاسم فى قيام الحرب العالمية الأولى . فقد شعر « غليوم الثانى » عاهل ألمانيا فى مستهل هذا القرن العشرين أن الشعب الألمانى فى حاجة إلى التوسع لتنال الطبقات العاملة فيه من ثمرات كدها ما يرفع مستوى العيش بالنسبة لها ، فإذا لم تجد الوسيلة لذلك عنف النضال بينها وبين أرباب رأس المال فهدد ذلك كيان الدولة بالاضطراب والثورة . أما إذا هى وجدت الوسيلة لذلك ولو خارج الحدود الألمانية فقد وجدت الطمأنينة السبيل إلى البلاد . ولما كانت فرنسا وإنجلترا متحكمتين يومئذ فى المستعمرات الأفريقية والآسيوية ، ولم يكن يسيراً أن تنزل أيهما عن شىء منها ، فقد أدت هذه الحالة إلى إعلان الحرب العالمية الأولى وإلى اكتواء العالم بنارها .

كانت روسيا فى ذلك الحين تضطرب بالحركة الفكرية التى دعا إليها تولستوى ، وكانت القيصرية الروسية تقمع هذه الحركة بكل ما أوتيت من قوة . وتنفى القائمين بها فى سيبيريا ، أو تضطرهم إلى الفرار خارج حدودها . وكان « لينين » وطائفة معه من مفكرى الروس من هؤلاء الذين نفوا أنفسهم . فلما اندحرت الجيوش الروسية أمام ألمانيا سنة ١٩١٧ ،

واضطرت القيصرية الروسية أن تعقد صلح برست لتوفسك ، شعر « لينين » وزملاؤه بأن الفرصة سانحة لإقامة النظام الشيوعى على النحو الذى صوره « كارل ماركس » ، فعادوا إلى روسيا وأشعلوا الثورة فيها وانتصروا وأقاموا النظام السوفييتى الذى تطور شيئا فشيئاً إلى وضعه الحاضر .

ولم تكن روسيا وحدها التى تأثرت بهذه الحركات الفكرية نتيجة للحرب العالمية الأولى ، بل تأثرت فرنسا وتأثرت إيطاليا وتأثرت إنجلترا بها ، مع أنها جميعاً خرجت ظافرة من تلك الحرب . وحسبى أن أذكر حزب العمال الذى لم يكن يمثله فى البرلمان البريطانى إلى أن بدأت تلك الحرب غير أفراد لا يبلغون عدد أصابع اليدين ، ثم قوى حتى أصبح يهدد حزب المحافظين ، وحتى طغى على حزب الأحرار البريطانى طغياناً سار به إلى مصيره الحاضر .

وكان طبيعياً أن تترتب هذه النتائج على الحرب العالمية الأولى . فقد شعرت الجماهير الفقيرة التى اشتركت فى الحرب فى تلك البلاد كلها أنها تحمل من عبء الدفاع عن الوطن ما يزيد على ما تحمله طائفة أرباب المال أضعافاً مضاعفة ، فمن الطبيعى أن تطمع فى حظ من العدل أوفر مما كان لها حين كان العالم يرتع فى بحبوحة السلام ، وحين كان منطق النظرية الفردية معتمداً على ما يسميه قانون الطبيعة القاسى للأجور ، متناسياً أن لهؤلاء الذين يتناولون تلك الأجور من القوة المادية ما يعيش أبناء الوطن جميعاً من كدهم ، وما يجعلهم إذا امتنعوا عن العمل يشلون الحركة الاقتصادية ويعرضون النظام القومى كله لنتائج خطيرة .

أما وقد ذكرت ما كان للحركات الفكرية فى الميدان الروحى ، وفى الميدان الاقتصادى ، من أثر فى الحياة العامة ، فيجب ألا ننسى ما كان لهذه الحركات من أثر فى الميدان الاجتماعى . لقد أشرت إلى إلغاء

الرق بعد أن ظل نظاماً قائماً فى العالم ألوف السنين ، وإلى أن إلغاء هذا الرق إنما جاء أثراً للحركة الفكرية التى أدت إلى تقرير حقوق الإنسان ، وفى مقدمتها أن الناس يولدون أحراراً ، ويجب أن يظلوا حياتهم أحراراً . لكن الفردية الاقتصادية التى حصرت عمل الحكومات فى حدود المحافظة على الأمن ليستمتع كل فرد بحريته مادام لا يعتدى على الحرية المادية لغيره أدت إلى بقاء الطبقات الكادحة ، وهى السواد الأعظم ، فى غيابات الجهل المطبق . فلما بدأت الدعوة للعدالة الاجتماعية ، وبدأت الحركة الفكرية تطالب بأن يتسلح الأفراد جميعاً للحياة بأسباب المعرفة التى تمكنهم من أن يشقوا طريقهم فى الحياة الكريمة ، اعترفت الأمم المتقدمة بحق الأفراد جميعاً فى أن ينالوا حظًّا من التعليم يؤهلهم لإدراك ما فى الحياة من معانى الحق والخير والجمال ، بذلك نهضت الشعوب التى تقرر فيها هذا الحق وقتئذ نهضة قوية ، وبدأ تضامنها يقوى وبدأت تؤدى للحياة الإنسانية فى أمم الأرض المختلفة خدمات جليلة .

وكان من أثر هذه الحركة الفكرية فى الميدان الاجتماعى أن تطور موقف المرأة من الحياة القومية أضعاف ما تطور موقف الرجل منها . لقد كانت المرأة معتبرة فى العصور الوسطى وعاء للتناسل ومتاعاً للرجل وخادماً لذريته . فلما تقررت الحرية الفردية كان نصيب الرجال منها أوفر أضعافاً من نصيب النساء ، لأن الرجال هم الذين قاموا بالثورة على الماضى . لكن تقدم الزمن أتاح للمرأة أن تكسب حقوقاً انتهت إلى اعتراف ميثاق الأمم المتحدة بالمساواة بين الرجال والنساء فى الحقوق كلها . وإذا كان هذا الاعتراف لم يطبق إلى اليوم فى بلاد كثيرة فإن مجرد الإقرار به يعتبر خطوة فسيحة نحو تحقيقه . ربما لا يتهى ذلك إلى أن تقوم المرأة بالأعمال التى

يقوم بها الرجل ، كما أنه محال على الرجل أن يقوم بكثير من الأعمال التى أتاحت الطبيعة للمرأة أن تقوم بها . لكن الذى لا مرية فيه أن هذا الاعتراف فتح أمام المرأة ميادين جديدة فى الحياة . والمرأة وحدها هى القديرة على تكييف الصورة التى تشغل بها هذه الميادين .

وكلنا يعلم أن كل واحدة من هذه الحركات الفكرية وما إليها من مثلها فى ميادين العلم والفن وغيرها لم تكن تنتج آثارها فى يسر على أثر قيامها ، بل كانت تلقى من المقاومة ما يردها على أعقابها فى كثير من الأحيان لتتحضر من بعد فتقوم بهجوم جديد تنال فيه حظًّا كبيراً أو حظًّا ضئيلا من النجاح . وكذلك أشرت إلى مقاومة القيصرية الروسية للأفكار التحريرية حتى كانت هزيمة روسيا فى الحرب العالمية الأولى وانتقال روسيا السريع من الحكم المطلق إلى الحكم المنشفيكى ثم إلى الحكم البلشفى . وهذا طبيعى ، وإذا كان انتقال الفرد من الطفولة إلى الصبا إلى المراهقة إلى الشباب يقتضى عشرين سنة أو نحوها فليس كثيراً أن يحتاج انتقال الأمة من طور إلى طور إلى أضعاف هذا لزمن ، إلا أن تكون الأمة من الحيوية بحيث تستطيع أن تسرع الخطى وأن تبلغ فى أعوام ما لا يبلغه غيرها فى عشرات الأعوام .

وأنتم تعلمون كما أعلم أن هذه الحركات الفكرية تتفاعل ويتأثر بعضها ببعض ويحدث تفاعلها فى العالم كله أثراً يختلف قوة وضعفاً باختلاف قيمتها ومصدرها . لما أدى التفكير العلمى إلى ازدهار الصناعة فى الدول الأوربية فزادت منتجاتها على الحاجات المحلية ، فكر ساسة هذه الدول فى الوسيلة لتصريف هذه المنتجات وإيجاد أسواق لها . وأدى بهم هذا التفكير إلى التماس الأسواق فى الأمم المتخلفة عنهم فى ميدان الصناعة ،

ثم أدى ذلك إلى استعمار هذه الدول . ألم تكن شركة الهند الشرقية شركة بريطانية غايتها تصريف المنتجات الصناعية البريطانية فى الهند ، ثم أصبحت هذه الشركة حكومة داخل الحكومة أو الحكومات الهندية ، ثم أصبح الجيش الإنجليزى يؤازرها ، ثم انتهت مؤازرته إلى استعمار إنجلترا للهند ، ثم كان ذلك مقدمة السياسة الاستعمارية الأوربية للأمم الآسيوية والأفريقية . وكذلك تمخضت الحركة الفكرية فى الميدان العلمى عن حركة صناعية انقلبت إلى حركة استعمارية خضع العالم لسلطانها طوال القرنين الماضيين .

ورب ضارة نافعة كما يقولون ، فقد تمخضت الحركة الاستعمارية عن الحربين العالميتين الأخيرتين اللتين أنزلتا بالعالم من الكوارث ما لم يشهد له العالم مثيلاً من قبل ، ثم تمخضت هاتان الحربان عن يقظة الشعوب المستعمرة ، يقظة أدت بالكثير منها إلى إلقاء نير الاستعمار ، وإلى النهوض تريد الحياة الحرة الكريمة ، وتريد مشاركة أمم الأرض جميعاً فى النهوض بالإنسانية كلها لتسرع الخطى فى طريق التقدم نحو الكمال .

لعل ثَمَّ من يسأل : ما بالى لم أشر من الحركات الفكرية التى قامت فى هذا الشرق إلا إلى الحركات الروحية التى حدثت فى عهد الأنبياء عليهم السلام ، ثم التمست الأمثال للحركات الفكرية فى القرون الأخيرة لما حدث فى أوربا . ولا أحسب جوابى على هذا السؤال خافياً . فقد خيم الركود وما يجره الركود فى أذياله من الجهل والضعف والفساد على هذا الشرق فى القرون الأخيرة ، منذ حكم السلاطين العثمانيون حكم استبداد وطغيان . فلم تؤثر فيها حركة فكرية قوية الأثر تستطيع أن تهتك حجاب هذا الركود وتطرد أمام تيارها الجارف ما تخلف عنه من جراثيم التقاليد الضارة والآراء

السقيمة والفساد المذل . ولست أرى إذ أستعيد أمام ذاكرتى ما حدث فى منطقتنا هذه من الحركات الفكرية إلا ما قام به السيد « جمال الدين الأفغانى » والشيخ « محمد عبده » فى الميدان الدينى ، وما قام به « قاسم أمين » فى الميدان الاجتماعى . أما ما سوى ذلك مما حدث فلا يعدو أن يكون حركات مستعارة من الغرب لقيت من المقاومة ما حطمها ، لأن سياسة الاستعمار الغربى كانت حريصة على أن تتحطم . ولولا هذا الحرص لكان لهذه الحركات من الأثر ما يفيد فى بناء أمم الشرق أجل فائدة .

أتريدون دليلا على هذا الحرص ؟ إليكم مثلين حدثا فى مصر ولعل لهما فى غير مصر نظائر : قامت فى مصر فى أوائل هذا القرن العشرين حركة ترمى إلى إنشاء جامعة علمية تنقل إلى مصر ثمرات العلم من مختلف بلاد العالم . وتمهد السبيل لحركة فكرية فى الميدان العلمى تفيد مصر وتفيد أمم الشرق العربى كله . ولم يتجه الدعاة إلى هذه الفكرة للحكومة لأنهم كانوا على يقين من أن الحكومة لن تستجيب لهم ، بل لجأوا إلى السراة وكبار الأغنياء يطلبون إليهم التبرع لهذا المشروع الجليل . وكان لورد « كرومر » معتمد إنجلترا فى مصر وصاحب الكلمة النافذة فيها يومئذ ، وكان يرى أن التعليم العالى فى هذه البلاد لا يجوز أن يزيد على تزويد الشبان بالعلوم الكافية ليكونوا أدوات طيعة فى يد الحكومة إذا هم تولوا وظائفها . لهذا أوحى إلى رجال الحكومة جميعاً فطالبوا الأعيان بإنشاء « كتاتيب » لتعليم القراءة والكتابة وبالتبرع لها حتى يصرفهم عن التبرع لمشروع الجامعة . وكان لهذا العمل أثره . صحيح أن الجامعة قامت رغم ذلك . « لكن مواردها المحدودة حالت دون التوسع فيها بالقدر الذى كان يقصد الدعاة إليه أن يبلغوه ، وكذلك بقيت الفكرة تتعثر حتى استقلّت

مصر . ثم ضمت الحكومة كلية الآداب الأهلية التى أنشئت نواة للجامعة الأهلية وأقامت سائر كليات الجامعة .

أما المثل الثانى فتفكير بعض المصريين فى أوائل هذا القرن كذلك فى إقامة صناعة النسيج فى مصر ، هذه الصناعة المزدهرة اليوم ، والتى تكفى مصر حاجاتها الشعبية وتصدر منها إلى الخارج ما فاض عن هذه الحاجات . أتعرفون ما قوبل به ذلك التفكير الأول من لدن لورد «كرومر» . قيل يومئذ إن صناعة النسيج لا تصلح فى مصر لأن جو مصر لا يساعد على قيام هذه الصناعة . فلما أراد بعضهم أن يجازف مع ذلك قيل إن هذه الصناعة إذا قامت وجب أن تدفع مقابل الرسوم الجمركية رسوم إنتاج حتى لا تنافس غيرها . هذا بدلا من مدّ يد المعونة لصناعة يراد أن تنشأ على نحو ما يحدث فى بلاد العالم كلها .

•

كانت سياسة الاستعمار الغربى إذن حريصة على تحطيم ما تخشاه من أثر الحركات الفكرية ، ولو كانت هذه الحركات مستمدة من الدول المستعمرة نفسها . وقد أدى هذا التفكير الاستعمارى إلى نتيجته الطبيعية المحتومة . زاد المرارة بين الأمم الحاكمة والأمم المحكومة على النحو الذى زاد به المرارة بين الأرقاء والسادة فى العصور الوسطى ، ودفع إلى نفوس الأمم المحكومة بأن لها من الحق فى الحياة وفى الحرية ما للأمم الحاكمة . ولذلك قامت كلها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، تناضل فى سبيل حريتها واستقلالها . وهذا النضال هو الذى أدى بالسياسة البريطانية من ذلك الحين لتقدر المصير ولتعترف لطائفة من الأمم التى كانت تستعمرها بحقها فى الحياة الحرة ، وأن تكون فى نفس الوقت جزءاً من الكمنولث

البريطانى . لكن هذا التفكير اقتصر يومئذ على بريطانيا ، واقتصر فى بريطانيا على الشعوب القادرة على أن تأخذ حقها بيدها ، سواء من طريق القوة والاقتدار ، أو من طريق المقاومة السلبية والعصيان المدنى . فأما الأمم التى استطاعت بريطانيا أن تناهض فيها النزعة الاستقلالية فقد استبقتها فى مركز المستعمرات ، وتركتها لذلك تقاوم بكل وسائلها مذلة الخضوع لحكم الغير على أنه رق للأمم أشد إهانة من رق الأفراد .

ليس من حق ، وقد سردت من الحركات الفكرية ما اتصل بالشئون الروحية ، وبالشئون العلمية ، وبالشئون الاقتصادية ، وببعض الشئون السياسية ، أن أغفل من هذه الحركات ما كان عظيم الأثر فى تهذيب النفس الإنسانية . أقصد الحركات الفلسفية ، والحركات الأدبية ، والحركات الفنية . فما قام من حركات فكرية فى هذه الميادين قد صقل الحياة الإنسانية وجعلها أعذب مذاقاً ، وجعل متاعنا بها أبقى وأرقى ، وإن عنفت فى كثير من الأحيان رقته ، وإن بلغ رقيه فى بعض الأحيان حداً أذهل عقولا لا تستطيع متابعة هذا الرقى والسمو إلى عليا درجاته .

والواقع أن متاعنا الحق بالحياة أكثر اتصالا بهذه الألوان من الحركات الفكرية منه بسائرها ، وإن كنا فى حاجة إلى المتاع بنتائج الحركات الفكرية فى الشئون التى سبق لى ذكرها لنستطيع تذوق هذه الألوان الدقيقة الرقيقة السامية من التفكير الفلسفى والأدبى والفنى .

وإنى لأحاول أن أتصور ما تكونه الحياة لولا الفلاسفة والشعراء والكتاب وأرباب الفنون الجميلة من موسيقيين ومصورين ومن إليهم ، فأشعر أنا لولاهم لكنا أقرب إلى حالة الهمجية الأولى وإن بلغنا من السمو الروحى ومن الحرية السياسية ومن الرخاء الاقتصادى أعظم مبلغ . تصوروا

معى حال البلاد العربية فى نهضتها الروحية القوية التى أعقبت رسالة النبى العربى عليه السلام ، لو لم يكن فيها هؤلاء الشعراء والأدباء الذين أشاعوا فى جوها من رقيق العواطف وجميل الصور والمعانى مالا نزال نتغنى به إلى اليوم . ولقد سئل أحد مفكرى الإنجليز يوماً : ماأعظم ما تعتز به إنجلترا ؟ فكان جوابه : « شيكسبير » والإمبراطورية . وهل بقى من أثر الإمبراطورية الرومانية شىء أجل خلوداً على الدهر من آيات « مارك أوريل » ولوحات « رفائيل » و « مكلينج » ، ومن موسيقى « قردى » وأضرابه ، وهل تعتز البلاد الجرمانية بشىء ماتعتز بأسماء « بتهوفن » و « موزار » و « فاجنر » ممن لا تزال ألحانهم الموسيقية الشجية تشنف آذان العالم ، ومن أدب « جيتى » وفلسفة « نيتشه » ممن لا تزال كتبهم تهز العقول والعواطف . أفأستطيع وهذه هى الحال أن أغفل فى حديثى إليكم هذه الحركات الفكرية الإنسانية البالغة غاية السمو .

إننى من أشد الناس إيماناً بأن حضارة الأمم لا تقاس بقوتها الحربية ولا بتقدمها الصناعى بمقدار ما تقاس برقيها فى العلوم والآداب والفنون ، وبأن القوة الحربية والتقدم المادى إنما يستمدان من سليقتنا الحيوانية فى المحافظة على الحياة ، بينا يصور الرقى فى العلوم والآداب والفنون حيويتنا الإنسانية التى لا شريك فيها للإنسان من سائر الحيوان . فهذه العلوم والآداب والفنون تخاطب العقل والعاطفة والشعور وتدفعها إلى السمو فى مدارج البشرية العليا حيث يتجلى النور الإلهى فى بهائه وسنائه وضاء لألاء ليقربنا من مراتب الكمال ويرينا نور الحق فى جلال روعته التى تأخذ بالقلوب والأبصار .

والأمم التى ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون هى التى استطاعت

أن تضع فى بناء الإنسانية كلها ، لا فى بنائها هى وحدها ، لبنات متينة أقام البناء الإنسانى فيها فى حقب التاريخ كلها على أساس متين .

وإنه لمن حسن الطالع ، أن تكون الحركات الفكرية فى ميادين العلوم والآداب والفنون قد بلغت فى عصرنا الحاضر إلى حيث قربت بين الأمم ووصلت بينها بأوثق الوشائج . لما حضرت إلى مدينتكم الشهباء من إحدى وعشرين سنة حضرت إليها من لبنان ، ومع ذلك اقتضانى الحضور ساعات طوالا اضطررت معها إلى المبيت فى أثناء الطريق بطرابلس وباللاذقية . واليوم أحضر إليكم من مصر فى ثلاث ساعات بالطائرة . ولولا إصرار صديقى سامى الكيالى لخاطبتكم عن طريق الإذاعة وأنا مقيم بمصر . ولاستمعتم إلىَّ كما تستمعون اليوم ، وكما استمع أهلى وأصدقائى إلى إذاعة لى من الهند حيث كنت فى يناير الماضى . وأنتم تسمعون حين مقامكم بمنازلكم إذاعات أوربا وأمريكا تقفون منها على أنبائهما وعلى علومهما وآدابهما وفنونهما . وأحسبنا عما قريب سنشهد عن طريق التلفزيون أولئك الذين يحدثوننا أو يشنفون بأغانيهم أو بموسيقاهم آذاننا ، وإن بعدوا عنا مئات الأميال بل ألوفها . ومن يدرى ، فلعل العلم يزيد العالم قرباً بعضه من بعض فلا يكتفى بإلغاء المسافات التى تفصل بين الأمكنة ، بل يتغلب كذلك على الزمان فيجعلنا قادرين على أن نعيش مع أجدادنا ومع حفدتنا . وبومئذ تتحقق وحـــدة الوجود تحققاً ماديًّا ، ولا تكون فكرة عقلية وكفى .

لا أرانى بحاجة إلى أن أقص عليكم ماكان لهذه الحركات الفكرية من أثر فى بناء الأمم التى قامت فيها بعد الذى قدمته فى أول هذا الحديث . ولا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية السياسية من أثر فى فرنسا حين

قامت الثورة الفرنسية الكبرى ، وفى روسيا حين زالت القيصرية لتحل محلها البلشفية ، وفى إنجلترا حين قامت ثورتها الكبرى فى القرن السابع عشر فأكرهت ملوكها على الاعتراف بحقوق الشعب ، وفى أمريكا حين قام « واشنطن » على رأس المحاربين فى سبيل الاستقلال ، وفى الهند حين تولى « غاندى » وأعوانه قيادة حركة العصيان المدنى وعدم التعاون فى غير عنف ، وفى غير هذه من الأمم الغربية والشرقية التى ناضلت فى سبيل الحرية الفردية أو الحرية القومية . كما لا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية الاقتصادية والصناعية من أثر فى رخاء الأمم وفى توزيع الثمرات توزيعاً يتفق مع موجب العدالة الاجتماعية . ونحن نعرف كيف ارتقت الحركات الفكرية فى ميادين العلم والأدب والفنون بالشعوب التى ازدهرت فيها . وفضلاً عن ذلك فإن الحركات الفكرية يأخذ بعضها برقاب بعض ، فإذا قامت حركة روحية أو حركة علمية عاصرتها وسايرتها حركة سياسية وحركة اقتصادية وحركة علمية أو أدبية أو فنية . ذلك بأن هذه الحركات الفكرية تهز الأمم فتوقظها من سباتها ، فإذا استيقظت نشطت كل عناصرها واندفعت تستبق تريد كل واحدة منها أن تبلغ الكمال .

ومهما تقف العوائق فى سبيل هذه الحركات المتدافعة فإنها تنتهى بالتغلب على كل عائق ، شأنها شأن الماء إن حبسته تجمع حتى يحطم السد الذى يحول دون اندفاعه ، أو يطفو فوق هذا السد ثم يتخطاه غير عابئ به .

كثيراً ما قامت هذه الحركات الفكرية حين كانت القيود مفروضة على المفكرين فى التعبير عن أفكارهم . ففيما قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بعض المفكرين والكتاب فى فرنسا لا يستطيعون أن ينشروا كتبهم

فى البلاد الفرنسية ، فكانوا يضطرون للذهاب إلى هولاندا لطبعها هناك . وفيما قبل ذلك لقى المفكرون والعلماء الذين قالوا بكروية الأرض ألواناً من الإرهاق قل أن يحتملها غيرهم .

وسجلات التاريخ حافلة بالأدلة على أن الحركات الفكرية لا يمكن حبسها ، فإن هى حبست زمناً فلتخرج بعده من محبسها أعظم أيداً وأقوى سلطاناً ، وليكون لها من الأثر المحسن فى حياة الأمة وفى بنائها ما يسلك الذين حبسوها من قبل فى سلك الطغاة والأئمة الذين يذكرهم التاريخ بأسوأ ما يذكر به إنسان .

لهذا اقتنعت الأمم المتحضرة كلها بأن الحرية الفكرية وحرية التعبير هى أقدس ما يجب الدفاع عنه . ولعل قوة الحركات الفكرية على تحطيم كل عائق يقف فى سبيلها لم تكن الدافع الوحيد لهذا الاقتناع الذى بلغ حد الإيمان . بل لعل ما كان لهذه الحركات من أثر فى رقى الإنسانية إلى مدارج الحضارة قد كان أبلغ حجة فى هذا الاقتناع وهذا الإيمان . فقد تبينت هذه الأمم أن تاريخ التقدم الإنسانى هو تاريخ هذه الحركات الفكرية ، وأن حرية التفكير والتعبير هما اللذان كفلا لهذه الحركات أن تزدهر وتقوى ، وكفلا لذلك عزة الأمم وسعادتها ، فأيقنت بأن كل قيد من تشريع أو من بطش أو إرهاب يقف فى سبيل هذه الحرية يضر بالأمة أفحش الضرر ، ولذلك جعلت لها من القدسية فى دساتيرها وقوانينها ما يرد عنها كل غائلة ، ويدفع عنها كل عادية ، لتؤتى من الثمرات ما يدفع الإنسانية كلها نحو الكمال . وهو غايتنا جميعاً ، وغاية كل من يدرك المعنى الصحيح لكلمة الإنسانية .

لقد طوفت بكم فى آفاق شتى من تاريخ الحركات الفكرية فى العالم .

ولم أقف مع ذلك إلا لماماً عند كل واحدة منها . فاعذرونى إن كنت قد أطلت عليكم أو أملتكم . وغاية ما أرجو ، أن يكون لنا ، نحن أبناء هذا الشرق ، عظة وعبرة من هذا التاريخ . فمستقبل الإنسانية كلها ، لا مستقبلنا وحدنا ، يتطلع اليوم إلينا يريد أن يعرف أيان اتجاهنا . ومن لم يعرف الماضى ليعتبر به لم يعرف كيف يصور طريقه للمستقبل . وحاشا أن يكون ذلك شأننا .

* * *

إذا رجعت إلى نهضة الشرق من بضع عشرات من السنين ، وجدت مؤلفات ، ووجدت نزعة إلى حرية الفكر ، لكنك لا تجدها صريحة صراحة النهضة الحاضرة ، ولن تجدها صادرة عن مثل الإيمان العميق التى ترتكز النهضة الحاضرة عليه . وهذه ظاهرة لها معناها ولها أثرها . فمعناها أنه إذا كان للقديم مكانته واحترامه ، فإنه قد فسد فساداً أصبح لا يمكن معه البناء فوقه ، بل لا بد من بناء جديد . ولإمكان هذا البناء الجديد يجب ألا يكون القديم غلاً فى أعناق العقول وحجر عثرة فى سبيل التفكير . إذن فقد ملت مصر ومل الشرق الإقامة فى الأطلال الخربة المتخلفة عن الماضى ، وانطلقا يبحثان جميعاً عن حضارة المستقبل . . وقد سئمت مصر وسئم الشرق حكم الجامدين من عباد هذه الأطلال الذين ينعبون من خلالها ، كما تنعب حشرات الأشجار التى تنمو فى المقابر . وقد اعتزمت مصر واعتزم الشرق إقامة حضارة جديدة تكون بعثاً لهما بعد هذه الرقدة الطويلة التى رقداها منذ القرن الخامس عشر .

هذه الدلالة الواضحة لتلك المظاهر التى أشرنا إليها موجودة فى غير الكتب وفى غير المجلات والصحف ، هى موجودة فى هذه النهضة العظيمة

التى نهضتها مصر ونهضها الشرق فى مختلف الميادين .

وهذا البعث الذى تدل عليه هذه الدلائل لا يقف عند طائفة المستنيرين من أهل الشرق ، بل هو قد عم الطوائف جميعاً . وبحسبك أن تنظر إلى عباد الماضى أنفسهم لترى ذلك واضحاً فى تصرفاتهم . فهم لا يسلكون أبناءهم سبيلهم ، بل يعدلون بهم إلى السبيل الذى تسير فيه النهضة الحاضرة ويوجهونهم نحو هذه الوجهة التى يزعم بعضهم أنه يحاربها . ولو أنه كان مؤمناً حقًّا بما يقول ، ولم يكن دفاعه مجرد تمويه يستر به عجزه وضعفه لربى أولاده تربيته وسلكهم فى سبيله . أما أن يوجههم فى السبيل الأخرى ، وهو يعلم تمام العلم أنهم سينتهون إلى محاربة مذهبه . وإلى تقويض الأطلال التى ينعب هو من خلالها ، ثم يزعم بعد ذلك أن هذه الأطلال هى السياج الحامى للجماعة ، فذلك هو الرياء مع النفس ومع الناس رياء لا يتفق لرجل تعمر قلبه ذرة من الإيمان برأيه .

ومهما يقل هؤلاء إنهم إنما يفعلون ما يفعلون من ذلك اندفاعاً مع التيار ، أو لكفالة خير أسباب العيش لأبنائهم ، فإن قولهم مردود عليهم . بل فيه ما يدل على أنهم أصبحوا زوائد متخلفة لا حاجة بالناس إليها . ذلك أن التيار إذا جرف ، وكنت أنت مؤمناً حقًّا وعن عقيدة وإيمان بأنه تيار ضار ، فأول واجب عليك أن تقاومه بكل مـــا لديك من وسائل ، وألا تقدم له من الأسباب ما يزيده قوة واندفاعاً . خير أسباب العيش ليس وحده سبباً كافياً ليجازف الرجل بأبنائه وبالأعزة عليه فى سبيل يعتقد أنه أذى وشر . فليس بمعقول مطلقاً أنك إذا رأيت السرقة أو النصب أو غيرهما من الوسائل الدون رائجة فى بلد ، وتكسب المتسم بها من أسباب العيش مالا يكسب غيره ، زججت بأبنائك ومن تعول فى غمار هذه الطوائف

لتكفل لهم خير أسباب العيش . فالحقيقة إذن أن هؤلاء سكان الأطلال الخربة ضعف إيمانهم وتحطمت عقائدهم بأن ما ينصحون الناس به هو الخير ، وهم لذلك لا يبتغونه لأبنائهم . ولو أنهم قد بقى لهم من مرونة الذهن ما يمكنهم من تغيير عقلياتهم وتحوير أذهانهم لما ترددوا لحظة ، ولانقلبوا إلى هذا الجانب الذى يعمل الكل فيه لتوطيد أسباب بعث الحضارة فى الشرق وتدعيمها .

ثم إن هذا البعث قد تناول طوائف الأمة غير المستنيرة بمقدار ما تناول طوائف الأمة المستنيرة إن لم يكن بمقدار أعظم وأقوى . وهؤلاء الذين هم أشد الطبقات فقراً يقتطعون من أسباب قوتهم للاندماج فى هذه النهضة بأنفسهم إن استطاعوا ، وبأبنائهم إن لم تمكنهم مشاغل العيش والحياة . فلم تفتح مدرسة ليلية فى قرية من القرى حتى اكتظت بالفلاحين المقبلين على التعليم فيها . وقد ضاقت مدارس الأولاد والبنات بمن فيها فى المدائن والقرى . وطـــاقة الحكومة والهيئات لإنشاء موائل للعلم أقصر من إقبال الناس على هذه الموائل بكثير . وهذا الإقبال هو فى الواقع إقبال على الحضارة الجديدة التى يعمل العاملون لبعثها فى الشرق بكل ما أوتوا من قوة .

وهذا السعى الحثيث فى سبيل حرية الفكر يكفل لهذا البعث أن يؤتى خير الثمرات وينتج أصلح النتائج ، ذلك بأن كل حضارة يرجى تجديدها لا يمكن أن تتجدد بمجرد النقل عن حضارة أخرى ، كما أنها لا يستطاع بعثها بالوقوف عند الأساليب القديمة التى بليت وأصبحت لا تحتمل مطالب الجماعة الجديدة . وقد كان الناس إلى زمن يتحدثون فى سبيل تحضير الشرق وبعثه عن الأخذ من الحضارة الغربية بما يصلح

لشرق وترك مالا يصلح له . وما يصلح وما لا يصلح تعبير مرن مطاط يمكن لكل فرد أن يختلف مع الفرد الآخر فيه . وما دامت الجماعة ضعيفة فهى تضطرب كل يوم إلى ناحية ما يقول به فرد من الأفراد . ولذلك نسى الناس هذه الفكرة القديمة واتجهوا إلى ناحية أخرى تظهر جليًّا فى مناحى بحث الباحثين وتفكير المفكرين . هذه الفكرة الجديدة هى أن كل حضارة لا تتفق وطبائع العمران فى الناحية التى تقوم فيها الحضارة مقضى عليها بالفشل لا محالة . وأنت إذا استطعت أن تقر فى إنجلترا مثلا صورة من صور الحضارة أخاذة بالنظر واللب فقد يستحيل عليك أن تقر هذه الصورة فى مصر أو فى الشام أو العراق ، لأن طبائع العمران فى هذه النواحى تختلف اختلافاً جوهريًّا عنها فى إنجلترا . وإذن يجب أن تتفق الحضارة المراد بعثها مع هذه الطبائع التى شكلت حضارات هذه الممالك والأمم فى الماضى . وإذن فكل حضارة يراد توطيدها يجب أن تتصل بالماضى اتصالا وثيقاً ، ويجب أن يكون ما يضم إليها من جديد قابلا لأن يظهر فيها ولأن يثمر .

ووسيلة معرفة هذه الطبائع تحرير الأفكار سلفا قبل البحث والنظر فيما أمامها . فهذه الطبائع ليست غريبة عنا ، بل هى طبائعنا ، وهى التى شكلت صبانا ، وهى التى يحتمى وراءها سكان أطلال الماضى . فإذا نحن نظرنا إليها نظرة مؤمن بما لم نستطع أن نجردها مما أحاط بها من أساطيرها ووثنياتها . فأما إن حررنا أفكارنا بحيث صارت صالحة لبحثها والتنقيب فيها ومعرفة مبلغها عند صفائها من الشوائب من التأثير فى الجماعات التى تخضع لها ، كان لنا بعد ذلك أن ننفى عنها الأساطير والوثنيات التى علقت بها وأن نقيم على أساسها صافية صريحة صرح الحضارة الجديدة التى نرجو

بعثها . وهذه الطبائع تصبح هى المنبع العذب الخصيب الذى تنبعث منه الحضارة .

والجهاد فى سبيل تحرير الفكر جهاد مضن فى كل العصور التى تسبق التحرير بالفعل . أليس هو إزالة هذه الأستار الكثيفة المعبودة ، أستار الجهل والضعف والرياء . أليس هو حرب الجامدين فى أرزاقهم وأقواتهم حرباً يستميتون أثناءها فى سبيل الدفاع عن أنفسهم . إن ما أورده صاحبا كتابى حرية الفكر والجمعيات السرية من تواريخ الثورات والمجازر والمحاكمات والتعذيب ، وما صوراه من ألوف ماتت ضحايا التعصب الأعمى . ومن رجال ذوى أفكار سامية سيقوا إلى العذاب وإلى الموت مما تشيب من هوله الرؤوس ، لكنه مع ذلك الدية المحتومة للجهاد فى سبيل تحرير الفكر . ولقد يكون من حسن حظ الشرق اليوم أن سادت فيه الأفكار الحرة فى العصور الأخيرة رويداً رويداً ، وإن أصبح النضال فى سبيل هذه الحرية كما كان فى العصور القديمة وإن كان مع ذلك نضالا قاسياً بما جر من حرب على الرزق والحرية . لكن هذا الجهاد قد أثمر إلى اليوم ثمرات توشك أن تجعلنا نعتقد أن أنصار الحرية أصبحوا على أبواب الفوز إن لم يكن الفوز قد تم لهم بالفعل . كما أن النهضة التى وصفنا والتى عمت كل طوائف أمم الشرق وسرت عدواها إلى أشد الناس جمودًا كفيلة بأن تقضى على كل محاولة لمحاربة حرية الفكر .

٢ – الحرب وحركة التجديد فى الشرق

عجيب ما أحدثت الحرب من انقلاب ! فبينا نرى الذين أثاروها من أهل أوربا قد اكتووا بنارها وأحرقهم لظاها ، فأفسد عليهم ما كانوا

ينعمون به فى جنة الحياة ، واضطرهم اليوم إلى جهاد أى جهاد لاستعادة هذا النعيم الذاهب ، نرى الذين كان يرتجيهم أهل أوربا مغنماً للحرب من أمم الشرق قد نشطوا من خمول وتحركوا من جمود ، وتطلعوا من مراقد كان يحسبها غيرهم مدافن الشرق الأبدية ، ينهضون إلى بعث يضارع بعث أوربا على أثر العصور الوسطى ، ويضارع بعث هذه الأمم الشرقية نفسها إثر قيام الإسلام . فكأنما كانت الحرب محاريث ومناجل دفعتها يد المقادير فى الغرب والشرق ، فكان أمامها فى الغرب حدائق وأعناب وجنات ذات عيون لم تلبث أمام هذه المناجل والمحاريث أن تجتث من الأرض وأن تقع على الجانبين ، فذبل منها ما ذبل وتداعى ماتداعى وبقى البعض وله بالأرض اتصال هو الذى يسمح بالرجاء اليوم فى استعادة النعيم الذاهب ، وكان أمامها فى الشرق أرض جامدة تلبدت فوقها حشائش وأعشاب جافة لم تلبث أمام مناجل القدر ومحاريثه أن تطايرت ، وأن شقت الأرض ، وأن فجرت فيها العيون فإذا قوة الإنبات والإثمار تنشط من جديد ، وإذا الجذور القديمة التى ضعفت عن أن تجد لها مخرجاً خلال جمود الأرض قد وجدت سبيلها إلى النور والهواء والحياة ، وإذا بذور وفروع جديدة من دوحات الغرب التى حطمت تطعم هذه البذور والفروع القديمة لتعود أنضر مما كانت ، ولتبعث الشرق إلى حياة المجد والعظمة كرة أخرى .

قلبت مناجل الحرب ومحاريثه الطبقة الجامدة من أرض الشرق ، هذه الطبقة التى تكونت خلالها عصور وعصور بفعل الظلم والإرهاق والاستبداد فحبست عن أهل الشرق نور الحياة وقبرتهم مقيدين فى أصفاد من الأوهام والأباطيل ، لا تنفذ إليهم من شمس الحياة الإنسانية حرارة تصهر الطبقة الجليدية فتذيبها فتطلق الأسرى من إسارهم . وخلال هذه

العصور والأجيال المتعاقبة ألف الشرقيون أغلالهم وما هم فيه من ظلمات حتى حسبوه الحياة والنعيم . ولم لا ؟ أليس كل شعاع يبرق خلال الظلمة الداجنة تعشى له الأبصار وتفزع منه ولا تألفه إلا إذا ثبت واطمأن فاطمأنت له ولم يكن يخرق حجب طبقات الظلم والاستبداد الكثيفة إلا بروق خاطفة تجيء فى فترات متباعدة فلا يكون من أثرها على المصفدين فى الأغلال إلا أن تبهر من غير أن تضيء . لذلك اطمأن الشرق إلى حجبه فركدت عواطف أهله وجمدت قرائحهم واضطرب حسهم ، بل فسد ما فيهم من الغرائز الحيوانية الأولى . فلما آن للحرب أن ترفع عنهم الطبقة المتحجرة من غير أن تطلقهم من أغلالهم . ثم لما ألفت عيونهم النور ونفوسهم الحياة هاجوا واضطربوا وثاروا ولا يزالون إلى اليوم فى ثورتهم وهياجهم .

وهذا أول البعث ومقدمة النور والحياة فى الشرق . وهذا بدء عود الشرق إلى مجده وعظمته . ولما كان الطغاة والمستبدون إنما أذلوا الشرق وسدلوا عليه حجاباً من الظلمة تحجر إلى الطبقة القاسية التى أشرنا إليها بمؤازرة طوائف أنصار الجمود فى التفكير والحس والعاطفة ، لذلك رأيت الثورة التى بدأت سياسية بحتة على أثر الحرب - لأنها كانت متأثرة بمطامع الذين أعلنوا الحرب وبما أعلنوا من مبادئ سياسية - رأيتها بعد أن ألف أهل الشرق النور الذى تكشفت عنه حجب الماضى ، تناولت هذا الجمود فى التفكير وفى الحس وفى العاطفة ، وجعلت من أنصاره خصماً يجب القضاء عليه ، أو إخضاعه ، كما يجب القضاء على المتحكمين السياسيين وإحلال مبدأ التضامن فى العلاقات الدولية مكان مبدأ الاستعمار والعسف . وليست الجهود التى توجه لمحاربة الجمود دون الجهود التى توجه لمحاربة الاستعمار والاستبداد ، ذلك بأن الجمود هو الذى مكن فى الماضى للمستبدين

وللمستعمرين ، وهو الذى يمد اليوم فى أمل من لا يزال له منهم أمل أن يحكم أمم الشرق بالسيف والنار أو بالخديعة والتفرقة . فإذا قضى على الجامدين ، أو إذا هم ذلوا وخضعوا ، رأى المتعسفون فى الحكم أن لم يبق لهم إلى العنف والعسف سبيل ؛ لأن الحرية الغالية تطغى على كل عنف وعسف ، فجلوا عن أماكنهم جلاءً أخيراً ونزلوا عن عتيق مبادئهم ليعتنقوا مبدأ التعاون والتضامن فى سبيل الحرية والحق .

فما نراه اليوم من نضال بين القديم والحديث فى اللغة والأدب ، وما نراه من دعوة إلى التجديد فى العلم والفكر ، وما نلمسه من اندفاع إلى الحرية فى الحس والعاطفة وفى الرأى وإبدائه ، وما نشهده من محاولات جريئة للقضاء على كل آثار الجمود الماضى فى الصلات الاجتماعية كحجاب المرأة وكنظام الطوائف بين الرجال ، وهذه النزعة الطموح إلى ناحية الفن الجميل فى مختلف صوره – هذه المظاهر التى نراها للشرق فى أطوار بعثه ليست إلا آثار الثورة على جمود الماضى العتيق وعلى عسف الحاضر وما يؤيد هذا العسف من استبداد واستعمار .

وهذه النهضة وهذه الثورة لاشك بالغة غايتها ، محققة للشرق بعثاً مجيداً . ذلك بأن النفوس الشرقية التى كانت حبيسة فى ظلم الجمود وغيابات الظلم ، والتى ضعفت لذلك فيها أسباب العزيمة والنشاط ، قد شعرت بهذه الأسباب تعاودها مع النور الجديد كما رأت إبان الحرب وعلى أثرها أن هؤلاء الغربيين التى كانت تنظر لهم فيما مضى كأنهم آلهة الفكر والنظر والإبداع والاختراع لم يكونوا آلهة إلا لأنهم كانوا أحراراً ، وأن الشرق لم يعبدهم إلا لأن الجمود أفقده حريته . أما وقد تحطمت قيود الجمود فقد آن لأصفاد الاستعباد والاستعمار أن تتحطم هى الأخرى ، وآن للشرقيين أن يكونوا آلهة

كالغربيين أو أن يكون الغربيون أناساً كالشرقيين سواء بسواء ، والشرق يخطو إلى هذه الغاية بخطى الجبابرة ، لأنه وقد رأى ميادين العمل انفسحت أمامه ، ورأى عقله وذكاءه تحرراً ، لم يبق ما يعوقه عن العمل بكل ما أوتى فى العقل والعاطفة والحس وفى البدن أيضاً من قوة ونشاط . ومن عمل إستحق أجر عمله وحصل عليه ولن يسلبه منه سالب ما دام يعتزم الاحتفاظ به مستعداً لدفع من يريد العدوان عليه بكل ما أوتى من قوة بدنية وعقلية .

وهذه المرتبة السامية التى يخطو الشرق نحوها ولا تخامره ريبة فى قرب دركها هى التى تحفز من ألقت عليهم المقادير بعبء هذا البعث وتجعلهم يرون فى كل تضحية يتقدمون بها كسباً جديداً دونه كل كسب . أرأيت إلى هذا الذى يجاهد فى سبيل حرية الفكر كيف يحاربه الجامدون وكيف يعملون بكل ما أوتوا من قوة ليحرموه من رزق الحياة ، بل من الحياة نفسها ؟ أرأيت إليه يستهين بما يستطيع خصومه أن يبلغوه منه ولا يتردد لحظة فى مساجلتهم الحرب واثقاً من أنه سينتهى إلى الظفر وسيلقى بهم تحت أقدامه أذلة صاغرين ؟ ثم أرأيت إلى هذا الشخص الذى لا يحفل بحكم الجمهور ولا بزرايته بفن من الفنون فيزدرى الجمهور ليعلى مكانة هذا الفن ويواصل السنين تباعاً يعانى من ألم الحرمان المادى ما كان فى غنى عنه لو أنه جارى الجمهور وخضع لأهواء الجامدين ؟ وهل رأيت لأبطال النهضة النسوية يريدون أن يحرروا نصف الإنسانية تحريراً عملياً من إسار الذل ويبعثوا إلى العالم من نشاط العواطف الحية السامية ما يضاعف العالم نشاطاً وسمو عاطفة ، غير آبهين لما يقوله الجامدون عنهم ، ولما يجاهدون فى سبيله من حرمان وما يصلون إليه أحياناً من نصر مؤقت فى هذا الحرمان المادى ؟ أرأيت إلى الذين يضحون فى سبيل النهوض بالشرق إلى المراتب الإنسانية السامية ! إنهم

ليجدون فى تضحيتهم لذة معنوية دونها كل لذائذ الحياة الجامدة . وما المال ، وما الألقاب وما المناصب إلى جانب رضا النفس وطمأنينتها إلى أداء واجبها السامى للإنسانية . إن قلب الإنسان لأكثر أعضائه نبضاً وأدقها حساً وأكثرها تعرضاً لكل ما يصيب سائر الجسم من آلام ، وهو مع ذلك أشرف الأعضاء وأسناها لأنه هو الذى ينظم فيها الحياة ويجعلها – ما دام هو سليماً – تتذوقها على خير ما تمكنها قواها الباقية .

والغبطة النفسية التى تنسى صاحبها آلام البدن وحرمانه ، واللذة المعنوية التى تذيب العذاب المادى فلا يشعر به صاحبه ، هذان هما دعامة الإيمان الذى يحرك الأجيال ويدك الأطواد ، وهذان هما اللذان كانا فى تاريخ الأمم المحرك والدافع إلى المجد والحضارة . استطاع أصحابهما فى كل عصر نجموا فيه أن ينتشلوا أممهم الغارقة فى عبادة المادة الجامدة عن إدراك بهاء الحق والجمال والحرية . وهما اليوم متوافران فى الشرق بما لم يتوافرا فيه منذ قرون . وهما يسيران جماهيره مسحورة بأصحابهما ، وإن وجدت فيهم أكثر الأحيان خوارج على ما قدسته خلال القرون ، ثواراً على ما شادت به يد الظلم والاستعباد من هياكل الوهم ومعابد الأباطيل .

نعم إن جماهير الشرق لتسير اليوم مسحورة وراء دعاة الحق والجمال والحرية وإن أشعرتها غرائزها المكسوبة أنهم ثوار وخوارج لأن روح الثورة والخروج قد انسكبت فى قرارة روح هذه الجماهير نفسها ، فهى قد رأت بعينها ، بعد ما أزاحت الحرب طبقات الجمود المتحجرة ، أملا فى حياة جديدة . ولكن : ما هى هذه الحياة الجديدة ؟ وكيف يتحقق هذا الأمل ؟ إن أصحاب الرأى أيام الجمود لن يكونوا دعاة الحياة الجديدة ولا محقق الأمل الإنسانى الأسمى . هذا أمر تشعر به الجماهير شعوراً صادقاً . وهى

لذلك قد تخلت عن هؤلاء الجامدين وإن كانت ما تزال آخذة بتعاليمهم لأنها لما تجد فى الجديد ما يحل محلها وينظم شئون العيش والحياة تنظيماً يكفل الطمأنينة الوادعة المستريحة لكن الجديد يجب أن يقيم قواعد مكان ما انهار وتداعى . فلننظر نحن الجماهير بعطف يشوبه الحذر إلى كل الدعاة للتجديد ، فمن أفلح منهم تبعناه إلى مكانة الحكم وقبلنا من جديده ما تسيغه عواطفنا وما يتفق وتراث أسلافنا الأمجاد .

نفوس طامحة إلى الحرية تستعذب فى سبيل الحق والجمال كل تضحية وتندفع مؤمنة بما ألقت عليها مقادير هذا العصر الحاضر من رسالة . وجماهير شعرت بما خلّف الماضى وقد أصبح خرائب تلجأ إليها قهراً وكرها ، لأنها لما تطمئن إلى بناء جديد أقيم . وبيئة مؤاتية لهذه النهضة مؤيدة هذا البعث أنشأتها الحرب وقدستها الدعوة إلى تحطيم الاستعمار والظلم . هذه هى أدوات الشرق فى طور بعثه . وهى أدوات كافية كل الكفاية ليتم هذا البعث ولتقوم على أثره حضارة قوية تزحزح الاستبداد والاستعمار جميعاً عن كواهل أمم الشرق . وما دامت هذه الأدوات تعمل متوافقة فستصل من البعث إلى غايته .

وأكبر يقيننا أنها تعمل وستعمل موفقة . فهذه هى الجهود الجسام تبذل لكشف كل ناحية من نواحى الحياة الإنسانية وتخليصها من رق جمود الماضى وبعثها حية تبتغى ما يستطاع من الكمال . وهذه الدعوة إلى التجديد وإلى الحرية فى كل شىء ، وهذا القبول الحسن من جانب الجماهير لتلك الدعوة ، ليس إلا مقدمة لهذا الكشف فى النواحى التى ما تزال بحاجة إلى الجهاد . انظر إلى جانب الفن الجميل ! لم يكن يعرف أهل الشرق من أمره شيئاً حتى أيام الحرب ، ولم يكونوا يحلمون بفن جميل شرقى أو منسوب إلى أمة

من أمم الشرق ، وكان المتقدمون إلى ناحية الحضارة منهم يقفون عند الإعجاب بما تنتج حضارة الغرب من آثار الفن ، وينظرون إلى ما فى الشرق منه نظرة ازدراء وتحقير ويعتبرونه عملاً تافهاً إن لم يكن عملاً محرماً . أما اليوم فالجمهور يتطلع بعين العطف الكبير إلى ما يبذل من الجهود لإحياء الفن الشرقى والتقدم به لمجاراة حضارة العصر الحاضر . فالشعر والنحت والتصوير والنقش وما إلى هذه الفنون مما كان بعضه باقياً عندما رسمه له العرب من خطى ، والبعض الآخر موسوماً بميسم الإثم ، أصبح الكل ينظر اليوم إليها يريد بعثها فى صورة شرقية جديدة تتفق والبعث النفسى العام الذى تهتز به أرجاء الشرق جميعاً . والفن الجميل ثمرة الحضارة ، بل هو رحيق هذه الثمرة ، فالتطلع إليه ورجاء النجاح فيه والبلوغ به إلى مرتبة الكمال ، تطلع إلى هذا الرحيق إن لم نبلغه اليوم فأبناؤنا أو حفدتنا بالعوه لا ريب كأثر للبعث الحاضر .

ثم انظر إلى جانب التفكير . لم يقف أمره عند الدعوة إلى حرية الفكر والرأى وإبدائهما ووسائل هذا الإبداء . بل لقد كادت هذه المسألة تصبح اليوم بديهية على قصر العهد بالدعوة لها دعوة جدية . بل تعدى التفكير ما ألف الناس خلال العصور الطويلة الماضية إلى ما يزعمه البعض تجديفاً وإلحاداً . وأصبح البحث الحر عن الحقيقة لذاتها أمراً مسلماً به من ناحية ، وأمراً واقعاً بالفعل من الناحية الأخرى . فكثيرون يبحثون فى الأدب وتاريخه ، وفى الدين وعلائقه بالعلم ، وفى العلوم المختلفة ، على طرائق البحث الحديثة التى تبدأ بالشك وتختار من مذاهب البحث العلمية ما شاءت . ولئن كانت ثمرات هذه البحوث ما تزال قليلة وما تزال فجة فإن السنوات القليلة التى مرت منذ البعث ، والجهود التى أنفقت فى سبيل هذا البعث بالذات لم تكن لِتسَع أكثر من هذا . ثم إن سمو الثقافة الحاضرة وإنشاء التعليم العالى

وإقامة منشآته على أسس متينة كل ذلك بشير بإنتاج خصب فى المستقبل القريب يتناول كل ألوان البحث الفكرى ويتناول العلوم والفنون جميعاً .

وانظر كذلك إلى مقياس الحياة عند الناس اليوم وما كان قبل الحرب . لقد زادت حاجات العيش عندهم زيادة محسوسة ، ودخل بين هذه الحاجات كثير مما كان يحسب من قبل كمالياً ، وهو بعض الغذاء الأولى للنفس الإنسانية . فهم اليوم أكثر ميلاً للقراءة وللاتصال بالحياة العالمية أضعاف ما كانوا من قبل . وليس أدل على ذلك من سعة انتشار الصحف من ناحية ، وكثرة عددها وتنوع موضوعاتها من الناحية الأخرى ، وسموها فى كل شئونها على ما كانت مثيلاتها قبل الحرب سمواً كبيراً . وهم اليوم أشد حرصاً على الاستفادة من كل المكتشفات والمخترعات الإنسانية وأعظم إقبالاً مما كانوا فى أى وقت سالف على المتاع بنعيم العيش متاعاً إنسانياً كاملاً . اذهب إلى دور المسارح وإلى دور السينما وإلى معازف الموسيقى وإلى كل ما يتصل بمعانى الحس والعاطفة تجدها تضاعف عددها وتضاعف الإقبال عليها ، ثم هى إلى جانب ذلك تسير فى سبيل السمو والإتقان عما كانت عليه مثيلاتها قبل الحرب وعما كانت هى عليه أول خلق منشآتها الأولى أثناء الحرب . ثم هم اليوم فى عيشهم المادى فى منازلهم وخارج منازلهم أرقى مما كانوا بكثير . ولو أنك قارنت مدائن القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من كبريات عواصم الشرق بما كانت عليه هذه المدائن نفسها قبل الحرب لبهرك الفرق ولحسبت بين عمارة هذه المدائن اليوم وعمارتها من عشرين سنة ماضية عمل أجيال وقرون متعاقبة . وليست المدائن وحدها هى مظهر هذا التطور السريع فى دور البعث الذى يجتازه الشرق بل إن البلاد الصغيرة والقرى قد تأثرت به كما تأثرت الأمصار والعواصم أو

أكثر مما تأثرت الأمصار والعواصم ، والناس فى الشرق كله قد أنفوا الزهد القديم فى الحضارة الإنسانية ، وألفوا عيشاً جديداً لا سبيل إلى بقائه من غير جهاد مستمر هو الجهاد فى سبيل الحضارة ، وهو بعض أدوات البعث الذى نتحدث عنه الآن .

ولو أنك نظرت إلى أى جانب آخر من جوانب حياة الشرق لرأيت فيه مثلما رأيت فى جوانب الفن والتفكير والعلم وتصور الحياة من نهضة وجهاد للبلوغ بالنهضة غاية الكمال ، ولرأيت أن هذه النهضة الاجتماعية والفكرية والخلقية تتضافر أطرافها لمؤازرة النهضة السياسية تضافراً يضىء سبيل الحرية أمام الشرق كله ويجعل محالا فى سنين معدودة أن يخضع هذا الشرق لحكم متحكم أو لاستعمار مستعمر ، وأنه إن ارتضى فى علاقاته الدولية قاعدة أو صلة فإنما تكون صلة التعاون بينه وبين الغرب للبلوغ بالإنسانية كلها إلى مرتبة الكمال .

قد يرى بعضهم ، فيما لفتنا النظر إليه من جوانب النهضة ، قصوراً واضطراباً فأين علمنـــا من علم الغرب ؟ وأين تفكيرنا من تفكيره ؟ وأين فننا من فنه ؟ ونهضتنا الاجتماعية من نظامه العتيق المؤسس على أثبت القواعد ؟ بل ما قيمة هذه الجهود فى تلك الجوانب وما عساها تستطيع فى نهضة بلاد انقضت عليها عصور وهى سجينة تحت ظلمات تلك الطبقات المتحجرة من عسف واستبداد وجهل وجمود ؟ ! وقد يكون للناظر السطحى أن يتأثر بهذا الاعتراض حتى ليحسبه جديراً بالاعتبار . لكنه لا يزيد على أنه اعتراض سطحى فهذه النهضة التى تبعث الشرق اليوم إلى الحياة ليست بنت اليوم . بل إن لها لمقدمات ترجع إلى أكثر من مائة سنة مضت ، وللمجاهدين اليوم طلائع تقدمونا ، وقضوا فى ميدان الجهاد أبطالا عظاماً ،

وإن كان التاريخ لم يذكرهم فذلك لأن التاريخ لما يكتب بالعناية التى يجب أن يكتب بها . ثم إن الجهود ما تزال قاصرة حقًّا وما يزال الاضطراب بادياً فى نواحى نهضة الشرق . لكن هذا الاضطراب نفسه أمارة أخرى من أعلام البعث وحجة من حججه . ألست إذا أردت تشييد قصر منيف بدأت بإزالة ما يعترض أساساته من أسباب الضعف حتى لا يتطرق إليه فى مستقبل الزمن وهن ، ثم قمت بعد ذلك بإحضار كل مواد البناء وتحضيرها . فإذا ظهرت على السطح أوليات بناء القصر حسبها الناظر إليها خليطاً مضطرباً من الحجر والطين والجير ، ثم رأى حولها وخلالها ما هو أشد منها اضطراباً . لكنه لا يلبث كلما ارتفع البناء أن يرى النظام يحل محل الفوضى ، والعواضد تربط بين أجزاء البناء ، حتى إذا بالقصر المنيف تأخذ العين روعته واللب بهاؤه وجلاله . فهذه الجهود التى يحسبها السطحيون قاصرة ، وهذه الاضطرابات التى يتوهمونها الفوضى ، إنما تلك اختفاء أسباب الضعف والوهن من أسس نهضة الشرق وأدوات عمارتها . وهذه النهضة ليست بكبير حاجة إلى زمن طويل ليقف منها الناظر السطحى ، وغير الناظر السطحى موقف المعجب المقدس .

وإن عواضد هذه النهضة وروابطها لتظهر أمام الرائى رويداً رويداً . فالجهود العقلية – علمية وفكرية وأدبية – كانت مبعثرة فى الماضى لا تربط بينها رابطة ، وكانت ضعيفة لا تقوى على خلق هذه الرابطة . ثم ها هى ذى اليوم قد ربطت بينها الجامعات منتشرة على بلاد الشرق العربى المختلفة بما قررت من اتصال فيما بينها وبين غيرها من معاهد العلم المختلفة فيه . وهذه روابط فكرية ومعنوية تتقدم كل بعث إلى ذرى الحضارة كلما آن لبعث أن يؤتى ثمراته . ثم إن الروابط المادية نفسها تزداد كل يوم وتزيد

أمم هذا الشرق اقتراباً بعضها من بعض . ألست تتجول اليوم خلال الشرق كله فى أيام فتصل من القاهرة إلى القدس وعمان ودمشق وبغداد ثم إلى جزيرة العرب لتعود منها إلى القاهرة أو إلى أية نقطة أردت . وهذا التجوال كان يقتضيك فى الماضى شهوراً طوالاً ونصباً لا قبل للأكثرين بها .

وكلما قويت الروابط المعنوية والمادية ، وكلما تكدست ثمرة المجهودات الصادقة التى تبذل اليوم ، ارتفع أمام النظر هذا البناء العظيم وبدت على جوانبه تماثيل العلم والفن والفكر وكل أسباب الحضارة الشرقية رافعة الرأس يمسك كل منها بيد صاحبه علامة التضامن والتآزر لبناء هذا الشرق قوياً مجيداً .

ولقد اجتاحت بلاد الشرق فى السنوات الأخيرة حركة تجديد واسعة النطاق حقاً ، وهى متهمة بالتطرف إلى حدود الثورة أحياناً . وإذا كانت مصر لم تلجأ إلى طريق الثورة الذى لجأت إليه تركيا والأفغان وفارس لأسباب سياسية وغير سياسية مختلفة فإن ذلك لم يمنعها - رغم سبقها هذه الدول الشرقية فى الماضى إلى ناحية المدنية الغربية — من أن توسع خطاها فى حركة التجديد ، ومن أن تحث السير فى سبيله . والبلاد السورية والعراق تحاولان ما تحاول مصر وما تحاول البلاد الشرقية الأخرى . بل إن حركة التجديد لم تفت الحجاز وبلاد شبه جزيرة العرب برغم عدم ملاءمة أحوالها الاقتصادية وظروفها الاجتماعية له كملاءمة أحوال البلاد الشرقية الأخرى وظروفها .

وما نحسبنا نغلو فى قليل ولا كثير إذا اعتبرنا حركة التجديد التى تتناول أمم الشرق جميعاً دليلا على عمق إحساسها بأن النظام القديم ، بل المدنية القديمة ، التى كانت آخذة بهما لم يعودا صالحين للجهاد والتعاون مع أمم الأرض الأخرى. وليس فى هذا انتقاص للنظام القديم لذاته أو

للمدنية القديمة لذاتها ، ولكن معناه أن هذا النظام وتلك المدنية قد قاما بما أريد لهما أن يقوما به فى العصر الذى كانا فيه ملاك قوة الأمم وتقدمها . ثم كانت التطورات الأخيرة فى مدنية أوربا ، فتغلبت بمنشآتها الحديثة على ما كان فى النظام القديم من قوة بحيث أصبح عاجزاً عن مجاهدة هذه المدنية الحديثة ومنافستها . ولقد كان ذلك أبداً شأن النظم والمدنيات فى العصور المختلفة . يخلف واحد منها واحداً ويتغلب عليه فيزج به فى أعماق التاريخ . وليس فى هذا قضاء أخير على النظام المغلوب . فكثيراً ما حدث أن بعثت تطورات وعوامل جديدة هذا النظام إلى الحياة من جديد فى صورة تلائم تفكير الناس واتجاههم فى الحياة . ولكن فيه انتصاراً لنظام جديد عليه لا يرى الناس بدًّا من الأخذ به حتى يصلوا من الحياة إلى خير ما تستطيع الحياة أن تمدهم به من نعمة إبان العهد الذى يعيشون فيه .

ولقد يكون من موجبات الأسف عند البعض أن يكون النظام الجديد الذى تسعى أمم الشرق إليه مشرباً بالروح المادى الذى بعثه العلم فى أوربا فى القرون الأخيرة . وقد يكون من حق هؤلاء أن يزدادوا أسفاً لأن الشرق كان فى الماضى مبعث النهضات الروحية التى جددت قوى الأمم فجعلت من مهابط الوحى على الأنبياء فى مصر وفلسطين وبلاد العرب مصدر قوة كفلت لهذه الأمم سعادتها قروناً طويلة . ولكن هذه الأمم الشرقية شعرت بأن شعلة هذه القوة الروحية خبت فى الأزمان الأخيرة مما مكن لأمم الغرب من التغلب عليها والاستئثار بالأمر فيها وإكراه أهلها على ألوان من العبودية لا ترضاها أمة تحترم نفسها وتقدر كرامتها . ولم تجد هذه الأمم فى الرجال الذين تتمثل هذه القوة الروحية فيهم شيئاً من ضياء هذه القوة

ونورها . بل كثيراً ما كان هؤلاء المحفظة للقوة الروحية أعواناً للغالبين فى بلادهم . فلما كانت الحرب ورأى الناس فى بلاد الشرق جميعاً مظاهرها المادية أقنعهم ذلك بأن هذه المدنية المادية ونظامها غالبان لا محالة . لذلك ما لبثوا أن رأوا فى طائفة ممن ولوا أمرهم أنصاراً لهذه المدنية حتى بايعوهم ولم يقيموا الاعتراض معترض عليهم وزناً . ولعلك إن بحثت عن السبب فى ضعف هؤلاء الحفظة للقوة الروحية فى العصور الأخيرة فى الشرق وفى القرون التى سبقتها فى أوربا نفسها ، وجدته فى الأثرة الطائفية التى بعثتهم ليجمدوا على التعاليم القديمة ولا يعترفوا بما استحدث العقل الإنسانى فى مختلف ميادين الحياة من قوى . والأثرة الطائفية كالأثرة الفردية كانت دائماً سبب ضعف وانحلال ما اعتزت بنفسها وناوأت القوى المحيطة بها وانكمشت دون الاندماج فى هذه القوى لفائدة الجماعة ولفائدة الإنسانية . وكما أن رئيس الأسرة أو الطائفة يزداد قوة كلما شعر أهل الطائفة أو الأسرة أنه لهم أكثر مما هو لنفسه . على حين هو يضعف إذا هم رأوا فيه توفراً على ذاته وانكماشاً عنهم ، كذلك تضعف الطوائف التى يجلها الناس ويقدسونها إذا هم شعروا بها تبتعد عنهم ولا تريد لهم خيراً ولا إصلاحاً . ومن الثابت فى التاريخ أن حفظة القوة الروحية من رجال الدين فى أوربا وفى الشرق وصلوا فى عصور مختلفة إلى ظروف من الأثرة جعلت الناس ينظرون إليهم نظرة خوف وقلق . وفى هذه الظروف التى تغلبت الأثرة فيها على هؤلاء أبدى المشتغلون بالعلم من التضحية ما لفت نحوهم الأنظار وجعلهم يعتبرون رجال التضحية لخير الإنسانية ولفائدتها . كذلك كان الشأن فى أوربا منذ القرن الخامس عشر ، ولعل هذا هو الشأن الآن فى كثير من الأمم الشرقية .

وأنت إذا نظرت مثلا إلى أمة كتركيا كان سلطانها يمتد حتى أيام الحرب العالمية الأولى إلى بلاد الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف وبحثت فى نفسية أهلها عما يعتقدونه السبب لتدهورها ، ألفيتهم يؤمنون بأن السبب يرجع إلى أثرة طائفة الذين كانوا يمسكون بالقوة الروحية فى الماضى والذين كانوا مع ذلك مثال الأنانية والأثرة فيها ، وسواء أكان هذا الاعتبار صحيحاً أم غير صحيح فإنه حل من النفس التركية محل الإيمان ، وهو الذى جعل الناس يقبلون على حركة التجديد والإصلاح التى قام بها الغازى مصطفى كمال أفواجاً أفواجاً لأنهم رأوا هذه الحركة تقصد إلى رقيهم وسعادتهم جميعاً كأمة ولم يروا فيها شيئاً من الأثرة التى تميز بها ذلك العصر الماضى .

ومثل الاعتقاد الذى رأيناه فى تركيا نرى اعتقاداً شبيهاً به فى غيرها من الأمم الشرقية . ولهذا الاعتقاد نرى الناس يترددون قبل أن يحكموا حكماً قاسياً حتى على ما يعتقدونه متطرفاً غاية التطرف من حركات التجديد التى تقوم تلك البلاد بها ولا يأبون أن يضعوها موضع بحث ولا مناقشة . وما دامت النظم الاجتماعية توضع موضع البحث من غير تعصب لأى منها فتلك بداية حركة التجديد فى كل عصر وفى كل أمة .

فضلاً عما لحركة التجديد من الدلالة على عمق إحساس الأمم الشرقية بأن النظام القديم ، بل المدنية القديمة لم يعودا صالحين للجهاد والتعاون مع أمم الأرض الأخرى ، فإن لها دلالة غير هذه ليست دونها قوة . فحركة التجديد دليل أيضاً على عمق إحساس الأمم الشرقية بضرورة إلقاء النير الأجنبى عنها ، وإن كلفها ذلك ما كلفها ، وبضرورة التعاون مع الأمم الأخرى تعاون أخوة ومحبة ، لا تعاون سيادة وعبودية . ألست

ترى الناس جميعاً يقولون : إنا يجب أن نتسلح بأسلحة أوربا إذا اردنا ان ننجح فى وجه أوربا . ولقد كانوا يقولون هذا القول فى الماضى ثم لا يكادون يشفعونه بعمل . ذلك بأنهم لم يكونوا يؤمنون إيماناً صحيحاً ، وكانوا لا يزالون يتوهمون فى النظام القديم وسيلة للتحلل من الرق ، أو أنهم كانوا مطمئنين إلى هذا الرق . أما اليوم فهم يقولون ويعملون ويجاهدون بكل ما لديهم للتسلح فعلاً بالأسلحة الأوربية المعنوية والمادية . ولقد أدركت أوربا مدى ما يمكن أن يترتب على هذا الإيمان الجديد لدى الأمم الشرقية ، ففكرت فى ضرورة الارتباط بينها وبين أمم الشرق بروابط المودة والتحالف والتعاون ، وإن كانت ما تزال إلى اليوم مترددة فى المدى الذى تذهب إليه من هذا التحالف والتعاون الودى . وكانت ما تزال تماطل قبل وضع القواعد الأخيرة لهذا التحالف لأنها تريد أن تعرف غاية ما يدفع الإيمان الجديد الأمم الشرقية إليه من اعتزامها العيش حرة رافضة أى نير يفرض عليها .

وأحسب أن ثمة اعتباراً آخر هو الذى يدعو إلى تردد الأمم الغربية ؛ فالأمم القائمة بحركة التجديد على صورة جدية لا هوادة ولا مواربة فيها هى الأمم التى كانت قبل الحرب مستقلة استقلالاً صحيحاً والتى ما تزال مستقلة استقلالاً صحيحاً كذلك . فتركيا وفارس وبلاد الأفغان لم تخضع فى يوم من الأيام خضوع غيرها للنير الأجنبى . وإذا هى كانت فى بعض الظروف قد خضعت لتكون منطقة نفوذ لبعض الممالك الأوربية فإن خضوعها هذا لم يدم أمداً طويلاً ، ولم يكن عن رضاً وطواعية . وهذه الأفغان – على أنها بلاد صغيرة – لم ترض حكم إنجلترا إياها ولم تترك فرصة من الفرص إلا انتهزتها حتى وصلت للاعتراف لها بالاستقلال الناجز ،

لا تعليق فى أية ناحية من نواحيه بحال . وتركيا إذا كانت قد فقدت مستعمراتها ، التى كانت تجعل منها إمبراطورية كبيرة ، فإنها لم تكن يوماً من الأيام خاضعة لنير أجنبى خضوعاً بالمعنى الذى تفهمه الأمم الأوربية . وفارس التى كانت يوماً من الأيام مقسمة إلى مناطق نفوذ بين الدولتين الإنجليزية والروسية لم تدم على ذلك إلا ريثما وجدت السبيل للثورة عليه . وهذه البلاد التى كانت فى هذه المراتب السياسية فى الماضى هى القائمة اليوم بالتجديد على وجه قوى واضح . أما سائر البلاد الشرقية فكانت خاضعة من قبل لنير أجنبى هو نير تركيا ، أو لنفوذ أجنبى هو نفوذ إنجلترا أو فرنسا أو غيرهما . وحركة التجديد فى هذه البلاد ليست بمثل القوة الحادثة بها فى تركيا وفارس والأفغان . أفليس من حق أوربا — وهذه هى الحال — أن تتمهل وأن تطاول وتماطل قبل أن تمد لهذه البلاد — التى كانت محكومة منذ قرون ماضية ، والتى وقعت بعد الحرب فى قبضتها — يد مودة وصداقة وتعاون خالص .

ولأوربا أن تفكر على هذا النحو ؛ فالعلاقات الدولية لا تقوم بين الأمم على قواعد من مبادئ الحق والعدل والحرية على نحو ما اعتدنا أن نسمع إبان الحرب وبعدها . وإنما تقوم هذه العلاقات على أساس ما فى كل أمة من الأمم من قوة الحياة . فإذا صح يوماً من الأيام لدى أوربا أن حركة التجديد القائمة فى الشرق حركة متمكنة من النفوس بالغة منها مبلغ الإيمان واصلة يوماً من الأيام لتقف هذه الدول فى وجه أوربا موقف الند للند بطريقة عملية ، ولتكلف أوربا مشقات للتغلب عليها ، لم يبق بد من أن يقوم التعاون الصحيح بين الشرق والغرب ، ومن أن تقر أوربا الدول المغلوبة اليوم بمثل ما أقرت به من قبل لتركيا ولفارس وللأفغان ،

ومن أن ترتبط وإياها بعلاقات المودة الخالصة .

ونحن من جانبنا نقر بأن أوربا واصلة آخر الأمر لهذا الاقتناع بضرورة العدول عن ذلك إلى سياسة التعاون . فإنما يحول بين الدول الواقعة اليوم تحت السلطان الأوربى وبين القيام بحركة التجديد على النحو الذى تقوم به تركيا وفارس والأفغان وجود هذه الدول الأوربية نفسها وإلزامها البلاد الواقعة تحت سلطانها أن تسير فى خطاها إلى التقدم ، مع شىء كثير من الحذر حتى لا تتخذ أوربا من اندفاعها وسيلة لمناوأتها والعمل على محاربة آمالها فى التجديد . ومع هذا الحذر فإن الخطى التى تسير بها الأمم واسعة إلى حد كبير . وخذ مصر مثلاً ؛ فلم تبق بين أمم العالم أمة تخضع لمثل الاعتبارات السياسية الثقيلة التى تخضع لها مصر : تحفظات إنجلترا المكفولة بجيوشها من جهة ، والامتيازات من جهة أخرى ، والاضطراب الحزبى الناشئ عن هذا الموقف السياسى من جهة ثالثة . مع ذلك فإن خطى مصر فى سبيل التجديد خطى العمالقة . ومهما يتغير القائمون بأمر الحكم فى مصر فإن حاجة الشعب نفسه للتجديد تدفع هؤلاء القائمين بالأمر إلى السير فيه طوعاً أو كرهاً . وإذا كان من بينهم من لا يؤمن بالتجديد إيماناً صحيحاً وكان يستطيع لذلك أن يحاول الوقوف فى وجهه ، فهو إنما يحاوله بوسائل ملتوية لأنه لا يستطيع أن يصارح الناس بأنه عدو التجديد وخصم تقدم الأمة إلى الصف الذى يمكنها من التغلب على الجمود الذى عصف بها وبحريتها واستقلالها فى الماضى . وأنت لا ريب واجد من سوريا وفلسطين والعراق مثل ما تجد من ذلك فى مصر سواء بسواء . والحق أن الذين حضروا العهد القريب السابق لأيام الحرب فى هذه البلاد ليذكرون كيف كان الجمود متمكناً ، وكيف كانت الصيحات إلى التجديد تقابل

بفتور أدنى إلى السخرية منها والاستهزاء بها . وبالرغم من تضافر كثير من القوى فى هذا العصر الأخير على الوقوف فى وجه حركة التجديد فإن هذا التجديد منتصر لا محالة بالغ غايته من إلغاء النير الأجنبى والوصول بهذه الأمم لتكون علاقتها مع غيرها علاقة تفاهم وتعاون لا علاقة خضوع وذلة .

بقى الآن أن نتساءل عما يكون شأن مخلفات النظام القديم الذى جمد ، والذى حدثت الحركة بقدر ماجمد . هل يكون من أثر هذه الحركة القضاء على هذه المخلفات قضاء أخيراً ؟ ذلك ما يمكن أن تبعث مثل حركة تركيا على الاعتقاد به . فالتكايا القديمة ، والملابس التى كانت معتبرة وكأنها ملابس دينية ، والمحاكم التى كانت مصبوغة بهذه الصبغة ، كل ذلك قضى عليه إلى غير عودة . لكن تركيا نفسها — مع ظهورها فى حركة التجديد بمظهر المتطرف الذى لا يريد الوقوف فى منتصف الطريق من إصلاحها — قدرت أن لابد فى حياة الشعوب من قوة روحية . وإذا كانت هذه القوة قد أغرقت فى الماضى فى فيض من الجهالات والأباطيل كانت هى التى تعمر التكايا وما إلى التكايا من نظم ، فإن تنظيف أسباب هذه القوة من الأدران التى أحاطت بها فى الماضى وجعل الدين والعلوم المتصلة به موضع دراسة صحيحة كفيل بما تحتاج إليه الجماعة من هذه القوة من غير أن يخلق بسببها عاطلين ومرتزقة بغير عمل . وها نحن أولاء نرى فى الأفغان وفى فارس مثل هذا الاتجاه . بل ها نحن أولاء نراه أخيراً فى مصر وإن كان يسير بخطى متئدة ليس فيها معنى الثورة التى لزمت الانقلاب فى تركيا وفى الأفغان وفارس . وإذن فسيكون أن تأخذ هذه البلاد من هذا النظام القديم بالقدر اللازم لحياته ولحياتها وستنفى منه ما كان

معطلاً لغيره من أسباب حياتها وتقدمها ، سيبدأ هذا النظام لذلك يستعيد شيئاً من القوة التي تكفل له التعاون مع حركة التجديد الذى كان يعتبر فى الماضى عدواً لها، وعندئذ تؤتى حركة التجديد ثمارها فتقف الأمم الشرقية تكاتف غيرها من سائر الأمم ، وتكون قد خلفت لنفسها الحضارة التى تكفل لها الحرية وتكفل للعالم السلام .

٣ – حضارة الشرق الأوسط
متى تُبعث من جديد ؟

قامت فى تركيا وإيران وأفغانستان فى الحلقة الثالثة من هذا القرن حركة تجديد عظيمة أساسها إحلال مظاهر الحضارة الغربية محل آثار الحضارة الشرقية ، ولقد ذهبت تركيا فى هذا السبيل إلى أبعد مدى حين قررت استبدال الحروف التركية بالحروف اللاتينية فى الكتابة . وكثيراً ما قيل فى تركيا إن سبب ما أصابها فى الماضى إنما يرجع إلى أخذها بالحضارة الشرقية وقيامها على رأس الأمم الإسلامية حين كانت صاحبة الإمبراطورية العثمانية . ولعل شيئاً من مثل هذا يقال فى إيران وفى أفغانستان فهل نستطيع أن نعتقد أن الحضارة الغربية ستقضى على الحضارة الشرقية . وأن الأمم التى عاشت قروناً طويلة ذات حضارة شرقية خاصة ، ستضطر أمام تيار المدنية الغربية إلى أن تنسى ماضيها وإلى أن تأخذ فى الدقيق والجليل بالحضارة الغربية ، أو أن هذه النزعات القائمة اليوم فى الدول الثلاث التى أشرنا إليها ، وما شابهها من نزعات قائمة فى سائر الأمم الشرقية ،

لا يمكن أن تنتهى بالشعوب الشرقية إلى الأخذ بالحضارة الغربية وحدها ، وأن هذه الأمم متى استعادت نشاطها بما تقترضه من أمم الغرب ستضطر بحكم طبيعة الوجود إلى بعث حضارتها الشرقية من جديد ، بالغاً ما بلغ تأثر هذه الحضارة الشرقية بمظاهر الحياة الغربية التى اقترضتها ؟

وقد يحسب البعض عند النظرة الأولى أن الحضارة الشرقية قد أفلست بل اندثرت ، وأن لا سبيل لها إلى عودة أو بعث . أو ليس العالم تتقارب اليوم أجزاؤه بما ييسر العلم من طرق المواصلات وما يسهل من ذيوع الأفكار والآراء بمختلف الطرق والوسائل ؟ وإذن فالمدنية الحاكمة فى العالم ستكون مدنية واحدة ، وهذه المدنية اليوم وإلى أجيال مقبلة هى مدنية الغرب مدنية العلم والصناعة . بل لقد يصح القول عند أصحاب هذه النظرة الأولى بأن ما امتاز به الغرب من نشاط ، وما عرف عن أمم الشرق من ميل للدعة ، قد يجعل الشرق أبداً تابعاً للغرب فى مدنيته ، أسيراً له فى حضارته .

لكنى أحسب هذه النظرة الأولى لا تلبث أن يتغير رأى صاحبها إذا هى دامت إلى زمن يسمح بتفكير أعمق من التفكير السطحى ؛ فالشرق يستعير اليوم حضارة الغرب ويندفع فى استعارته إياها لأن الحضارة الشرقية التى كانت زاهرة فى عصور كثيرة قد تدثرت فى القرنين الأخيرين بنوع خاص بدثر ثقيلة من أوهام الماضى التى لا غنى عنها لسعادة السواد حتى فى أبهى أيام الحضارة ، والتى لا تتصل بهذه الحضارة إلا كما تتصل الألياف الذابلة بالشجرة القوية ، فإذا ذبلت الشجرة نفسها رأيت الألياف تتكاثر حولها وتتماسك وتصبح غطاء كثيفاً يحجب عن الجذع مقومات الحياة ويحجب عن الناس ما يبقى فى الجذع من حياة . وليست حضارة

الشرق فيما أصيبت به من هذه الدثر إلا خاضعة لما خضعت من قبل له مدنيات سبقتها . فالحضارة المصرية القديمة والحضارة الإغريقية القديمة وما اتصل بهاتين الحضارتين فى روما وفينيقيا قد عدت عليها عوادى الأيام كما فعلت بحضارة الشرق فى آخر عصوره . لكن ذلك لم يكن معناه أن هذه الحضارات القديمة قد قبرت إلى غير عودة . وإنما معناه أنها يوم تبعث تبعث متأثرة بحياة العصر الذى تقوم فيه بعد رقدتها الطويلة ، متأثرة كذلك بالمدنيات التى تجاورها ، والتى قد تندمج وإياها فى حضارة أوسع نطاقاً وأبعد فى حياة الإنسانية أثراً .

والحضارة ليس قوامها هذه المظاهر التى تراها العين فى الملبس أو حياة الأسرة وما إليها مما نستعيرها نحن بنى الشرق مما فى الغرب . كلا . فهذه المظاهر ليست إلا آثاراً تتفق وتختلف بين أمة وأخرى وطائفة من الناس وطائفة غيرها فى الأمة الواحدة . إنما الحضارة روح وإيمان . فإذا قلت الحضارة الإسلامية ، أو الحضارة المسيحية ، فأنت لم تقصد إلى الغزو الذى غزاه المسلمون وإلى ما فتحوا من أمصار ، ولم تقصد كذلك إلى ما استحدثوا فى اللباس وفى حياة الأسرة ، وإنما أنت تقصد إلى أصل أعمق من هذا ، أن تقصد إلى تصور الناس لعلاقة الفرد ولعلاقة الجماعة الإنسانية بالوجود كله . فهذا التوحيد الذى قام النبى « محمد » بالدعوة له هو أساس الحضارة الإسلامية كلها . ولهذه الفكرة خضعت ألوان التفكير والإحساس فى الأمم المختلفة التى انتشر الإسلام فيها . ولأفكار معدودة متصلة اتصالاً وثيقاً بفكرة التوحيد يرجع الفضل فى تطورات العالم الإسلامى العظيمة فى أيام مجده وفخاره . وفى طليعة هذه الأفكار المتصلة بالتوحيد فكرتا العدل والقصاص . كذلك الحضارة المسيحية تقوم على

أساس من فكرة التضحية – تضحية « عيسى » بنفسه لنجاة بنى الإنسان ، وفكرة الحب المتصلة فى الحضارة النصرانية بفكرة التضحية اتصالاً وثيقاً . لكن المتكلمين من المسلمين ومن النصارى قد أضافوا إلى هذه الأسس من استنتاجاتهم ومنطقهم ما كدس حولها الشىء الكثير من نظم وعقائد . ولما آن لهذه الحضارة الإسلامية وتلك الحضارة النصرانية أن يستريحا الزمن الكافى من الأوهام التى علقت بهما ، قامت الحضارة الأوربية الحاضرة ، والتى يمكنك أن تسميها حضارة العلم ، أو الحضارة الصناعية .

قامت هذه الحضارة العلمية أول قيامها على أساس من هدم قواعد الحضارات التى نشأت بينها . وإذ كان منشؤها فى أحضان الحضارة النصرانية ، فقد جدت أكبر الجد فى محاربة النصرانية ، وحاولت أن تحل محلها . وكانت هذه المحاولات بادئ الرأى بتأييدها الأساس الأول الذى تقوم عليه النصرانية . أساس الألوهية . فسخر « ديكارت » و « كانت » وغيرهما قواعد العلم والبحث الجديد لإثبات ما اعتمدت المسيحية على الوحى وعلى المعجزة فى إثباته . ثم كان الملحدون والعدميون وكان آخر الأمر المتشككون الذين قصروا العلم على ما نعلم وما نستطيع علمه من طريق البحث والملاحظة والاستقراء . فأما ما لا نعلم فقد وضع جانباً إلى أن تتاح فرصة لإثباته . وكان الكثيرون فى القرن التاسع عشر يؤمنون بأن هذه الفرصة آتية لا محالة ، وإنك إذ تقرأ الفيلسوفين الفرنسيين : « تين » و « رينان » لتشعر بأنهما يريان بعين الإلهام يوم يحل العلم طلاسم ما فى الأرض والسماء ويكشف عن لغز الوجود بوسائله التى لا تقبل الشك ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . على أن هذا الإيمان بقدرة العلم المطلقة قد بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً بما ظهر من مذاهب جديدة تهدم

مذاهب علمية قديمة ، وبما شعر به الكثيرون من العلماء أنفسهم بأن كل حضارة يجب أن يكون لها روح وإيمان . ولعل « كومت » العالم والفليسوف الفرنسى كان فى مقدمة العلماء الذين قدروا هذا . لذلك قرن بفلسفته العلمية ديانته الإنسانية لتكون روح حياة السواد وإيمانهم . وها هو ذا « برجسن » والروحانيون يشعرون اليوم بأن العلم – على ما أحسن للإنسانية ومد فى أسباب الرخاء والسعادة المادية – قد اعترف بقصره عن أن يجد حلا علمياً لصلة ما بين الفرد والجماعة الإنسانية بالوجود كله ، وبأنه لا مفر من الالتجاء للإلهام إذا أريد الوصول إلى هذا الحل ، ولابد من أن يكون حلاً يجمع إلى الحقيقة البساطة لتتمثله روح السواد والجماهير كى يكون لها أساس حضارة جديدة .

وليس هذا النوع من التفكير مقصوراً على العلماء والفلاسفة . بل إن موجة التفكير العام الأخيرة فى أوربا لتذهب إلى أن العلم قد عجز عن أن يعد غذاء نفسياً للشعوب الغربية ، وأنه لا مفر إذن من الالتجاء للشرق ومذاهبه وأديانه علّ الغرب يجد فيها هذا الغذاء . وإنا نجد هذا التفكير فى أمريكا وأوربا واضحاً قوياً : نجده فى أمريكا حيث تعددت المذاهب الدينية إلى غير حد ، وحيث جعل الناس يأخذون عن المذاهب الشرقية كالبهائية وغير البهائية . ونجد فى أوربا حيث يبحث الأوربيون فى مذاهب الهند القديمة يريدون أن يقيموا وحدة الوجود على أساس من إلهام أبناء « بوذا » و « برهمة » بعد أن رأوا الملاحظة والاستنتاج والاستقراء عاجزة عن إقامة هذه الوحدة . والتيوزوفية وغير التيوزوفية من المذاهب ليست إلا بعض آثار التعطش النفسانى وبعض مظاهر موجة التفكير هذه . فهل ترى يلهم الغرب الوصول إلى كلمة جامعة تكون للسواد روحاً وإيماناً

وتكون بذلك قاعدة حضارة جديدة يضطر الشرق إلى الأخذ بها فتكون مدنية غربية ؟ أم أن الغرب سيظل يضطرب بين موج من إلهامات الشرق الكثيرة القوية حتى يقوم فى الشرق مناد بكلمة الحق فإذا الغرب وعلمه يتبعانه طائعين لأنهما يجدان فى كلمته صلة الإنسانية بالوجود ، ويجدان لذلك فيها سبيل السعادة ؟

إذا صح لنا أن نتخذ التاريخ هادياً للجواب عن سؤالنا هذا ، أحسب جواب التاريخ أوضح من أن يحتاج إلى بحث بعيد ؛ فالكلمات الجامعة التى تفسر صلة الإنسان بالوجود تفسيراً يأخذ الناس به طائعين كان مصدر الوحى بها فى الشرق دائماً . فالإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية وديانة « كونفشيوس » بشر بها كلها رسل من أهل الشرق ولم يعرف التاريخ فى الغرب أحدًا نادى بكلمة جامعة كالتى نادى بها أى واحد من أصحاب هذه الأديان . هذا مع أن الغرب كان دائماً موضع نشاط عظيم ، وكانت اليونان منبع الحكمة والفلسفة الأولى التى تعتبر أساس الفلسفة الأوربية الحاضرة ما تزال . فإذا كان هذا جواب التاريخ كان لنا أن ننتظر صاحب كلمة الحق التى تفسر الوجود فى الشرق . وكانت مدنية الشرق الروحية هى التى ستعم العالم بعد أن تربط أواصر العلم وصلات الميكانيكا العالم كله وتجعل منه بقعة ضيقة. ويومئذ يكون التعاون بين حكمة الشرق ونشاط الغرب تعاوناً يجمع إلى الرخاء السعادة ، وإلى الحكمة السامية الطمأنينة الروحية .

قد يذهب بعضهم إلى أن عصور الإلهام قد انتهت ، وإلى أن العلم وامتداد سلطانه إلى مختلف نواحى الحياة يجعل الكلمة الشعرية التى تستريح لها النفوس جميعاً أمنية عزيزة المنال . وأصحاب هذا المذهب على

حق إذا أنت نظرت للمستقبل القريب جداً . أو إذا أنت قدرت أن العلم سيصل من سعيه المتواصل إلى حل لغز الوجود . وأحسب أن الظن بمقدرة العلم هذه لا يبرره الآن ما كان يبرر الإيمان بالعلم فى أيام « تين » و« رينان » . يومئذ كان العلم ما يزال فى فتوة نشاطه ، وما يزال بذلك يكشف كل يوم عن جديد . فكان المؤمنون بالعلم يحسبون أن العلم أصبح وحدة قائمة بذاتها ، سامية فوق الطبيعة الإنسانية لا تعرف الوقوف ولا الاستجمام . أما اليوم فقد أصبحت خطى العلم أبطأ بكثير عما كانت من قبل وأصبح العلم التطبيقى يبهر الأنظار أكثر مما يبهرها الكشف عن قوانين علمية جديدة . بل إن القوانين التى اعتبرت ثابتة زمناً ما ، قد وضعت اليوم موضع النقد والتحليل . فالمرحلة الحاضرة من مراحل العلم فى جانبه النظرى مرحلة تحقيق وتمحيص ، وليست مرحلة كشف جديد .

فأما العلم التطبيقى ، وأما اختراع السيارات والطيارات وزيادة أسباب الرخاء ، فليست فى شىء من قواعد الحياة الجديدة . إنما هى استخدام لقوى اكتشفت استخداماً واسع النطاق . وسيكون ثمة يوم قريب أو بعيد يقف فيه هذا النشاط التطبيقى عن الجديد من الاختراع ليعنى بكمال المخترعات وإسباغ الكمال الفنى عليها . ويومئذ يدخل العلم التطبيقى هو الآخر فى دور النقد . ويومئذ تتمخض الحركة العلمية العظيمة التى شهد العالم فى القرن الأخير والتى ما تزال تهزه اليوم من جهتها التطبيقية عن صور فنية تبعث إلى النفوس شعراً أكثر مما تبعث إليها علماً ، وتدعو الناس للتفكير من جديد فى الوجود كله كمجموع ، وفى الفرد الإنسانى محاطاً بكل أسباب الرخاء وعلاقته بهذا المجموع .

قد يكون هذا اليوم قريباً وقد يكون بعيداً . على أنه وإن بعد فلن يتخطى

بعدنا جيلاً أوجيلين . وفى هذا الجيل أوالجيلين سيندفع الشرق فى اقتراض مدنية الغرب اندفاع تركيا وفارس والأفغان اليوم وسيعقب حركات الاقتراض هذه حركات رد فعل وثورات كالتى تجىء منذ اليوم بها الأنباء من مختلف أنحاء هذه البلاد . خلال ذلك تثير هذه الحركات خوف الشرق وتحرك حضارته القديمة المتدثرة اليوم بدثر كثيفة من الأوهام . وتقوى نزعات هذه الحضارة القديمة فى نفس امتلأت بآثار علم الغرب وحضارته ووهبت من لدن القدر شاعرية ذات قوة ليست فى متعارف الناس . ومن هذا الاحتكاك بين القديم الموروث والحديث المستعار تكون شرارة إلهام تتجلى خلالها كلمة الحق التى تفسر لغز الوجود لأهل الجيل الذى تقال فيه ، كلمة الحق التى تجتمع فيها مظاهر الحضارة الغربية المستعارة وهذا الأصل القوى الثابت من حضارة الشرق التى كانت دائمة الطموح لمعرفة كلمة الحق .

يومئذ ينفخ الشرق فى حضارة الغرب بعض آثار هذه الروح ، وإذا أهل الغرب يدخلون فى حضارة الشرق أفواجاً مؤصّلين لا مستعيرين . وإذا الشرق والغرب يتعاونان للخير والحق . وإذا ضياء باهر يفتح أبواب عصر جديد . وإذا الغرب ينادى مقدساً : المجد للشرق الذى قد أمدنا بروح قضينا الأجيال نلتمسه فلا نجده . والمجد للروح روح الخير والسعادة .

أحسبنى أرى هذه التطورات التى أشرت إليها والتى أومن بها رأى العين ، وأحسب الذين تبهرهم اليوم مدنية الغرب يرونها مثلى إذا هم أطالوا التفكير فيها ، وبحسبهم أن يفكروا فى مبلغ شعور أهل الغرب اليوم بما ينقص مدنيتهم من روح يسمو فوق المادة ولا يخضع الخضوع الأعمى

لمذاهب الاقتصاد ليوقنوا يقيناً بأن العالم تضطرم اليوم بين أحشائه حياة جديدة لا سبيل لها إلى أن تبدو إلا أن ينبعث فى العالم نور حديد غير نور العدمية وهذا النور الجديد عما قريب سيضيء ، ومن الشرق سيكون مطلعه .

obeikandl.com